فؤاد التكرلي

بصقة في وجه الحياة

رواية

منشورات الجمل

فؤاد التكرلي: بصقة في وجه الحياة، رواية

ولد **فؤاد التكرلي** عام ١٩٢٧ ببغداد في محلة باب الشيخ. درس القانون في جامعة بغداد ثم عمل في وزارة العدل وعيّن قاضياً عام ١٩٥٦ ولبث في وظيفته هذه حتى عام ١٩٨٣. يقيم الآن في تونس. حاز على **جائزة سلطان العويس** للرواية ١٩٩٩.

من مؤلفاته: **الوجه الآخر**، قصص ١٩٦٠؛ **الرجع البعيد**، رواية ١٩٨٠؛ **المسرات والأوجاع**، رواية ١٩٩٨.

فؤاد التكرلي: **بصقة في وجه الحياة**، رواية، الطبعة الأولى، كولونيا / ألمانيا

رسمة الغلاف: محمود صبري

Postfach 210149 . 50527 Köln . Germany
Tel: 0221 736982 . Fax: 0221 7326763

"لو قيل عن هذا الرجل إنه قذر شرير لأمكنني أن أقول جازما بل هو مخلوق شجاع؛ أما وصفه بالجنون، فذلك هو الخطأ العظيم الذي لا يغتفر".

غدا يمكنكم أن تكملوا تخريب عالمكم

غدا يمكنكم أن تتغنوا بالفردوس

فوق الخرائب الداخنة لمدنكم الأرضية

لكنني الليلة أريد أن أفكر في رجل واحد

فرد منعزل

في رجل لا إسم له ولا وطن

في رجل احترمه لأنه لا يملك مطلقا

ما يشترك به معكم ...

أنا!

سأتأمل الليلة في ذلك الشيء الذي أكونه.

هنري ميللر

«ربيع أسود»

مُقَدّمَةٌ لِنَصٍّ مَلْعُونْ

-١-

العمل الفني الذي يصنعه الفنان وهو مسوق، ليس بفكرة أو حادثة، بل بمواجهة موقف عام يحيط به ويحاول أن ينال من عناصر ذاته الجوهرية والهامة، هذا العمل يصطبغ بالضرورة بصبغة خاصة منشؤها ذلك الموقف العام، وهو – العمل – إذ يتمحور حول هاجس المجابهة عموما، تتدخل فيه عوامل خفية وتجعل منه سلاحا للدفاع عن النفس. وبالنسبة للكتابة القصصية في حالتنا هذه، تترجرج موازين الكتابة التقليدية وتختلف الى حدّ ما، ويصير ثانويا ما كان أساسيا، وتتغير الاستعمالات العادية للغة فتتخذ المفردات والصيغ أشكالا أخرى غير مألوفة تماما، قد تميل الى بعض الغثاثة أو تتداخل في النص مواقف مرفوضة اجتماعيا وذوقيا أحيانا.

كل ذلك من أجل أن يولد بعدئذ نص ملعون، غير مقدس، يرتفع بناؤه الهجين متحديا بفجاجة كل القيم المتوارثة من خلال التمرغ العشوائي في المحرمات لكي يتوصل أخيرا الى هدم بنائه بنفسه صارخا مثل شمشون:

– عليّ وعلى أعدائي يا رب.

في حزيران ١٩٤٨ حين بدأت بكتابة (بصقة في وجه الحياة) كنت طالبا في السنة الثالثة بكلية الحقوق العراقية، محاطا بكل التناقضات والتحديات التي كانت تعمل عملها آنذاك في العراق وفي العالم العربي أجمع. ففي أواخر سنة ١٩٤٧ وبعد صدور قرار تقسيم فلسطين وتوقيع معاهدة بورتسموث اندلعت النيران في كل مكان. ومنذ اليوم الأول للوثبة كنت شاهدا على تحدي الشعب وانفجاره. كان ذلك صباح يوم ١٩٤٨/١/٥ وكان صباحا مشمسا دافئا وجميلا. وكنا متجمعين بهدوء أمام باب الكلية والمقهى، نسعى بتردد أن نلتحق بجموع الطلاب في دار المعلمين العالية لنقوم من هناك بالاعلان عن غضبتنا على ما يدبر لنا من دسائس دون اهتمام بإرادة الشعب وبحقوقه المشروعة. كنا بضع عشرات نقف على امتداد الشارع ونحن نهتف ضد السلطة هتافات متقطعة بين الحين والآخر حينما شاهدت فجأة ذلك الشرطي معتليا حصانه وهو يهاجمنا ويتقدم بسرعة نحونا. ثم، لحظات، وإذا بطابوقة أسرع منه تنهال عليه من لا مكان وتلطمه في رأسه. ورأيته على بعد أمتار مني يتهاوى مثل دون كيشوت ويسقط على الأرض ممسكا بسيفه الخشبي والحصان يسحبه ببطء. كانت تلك هي الشرارة الأولى التي تبعها الحريق الكبير بسرعة غير متوقعة.

ثم شاهدت بذهول بعد أيام جموع المتظاهرين العزل وهي تندفع بمواجهة الرصاص المنهمر عليها من كل جانب، عابرة الجسر، تتحدى، ليس أفراد الشرطة الخائفين وأسيادهم من السلطة الملكية الحاكمة فحسب، بل العالم كله. وقبله كانت تتحدى ذاتها.

-٣-

كانت قراءاتي آنذاك محدودة ولكنها متنوعة. وفي اعتقادي ان سعة الاطلاع لا تعني دائما تملك القدرة على الابداع القصصي، وإنما هو بالدرجة الأولى التمثيل الشخصي للمادة الثقافية. فبقدر عمق التمثيل والهضم لهذه المادة تنمو القدرة على الكتابة، ومع ذلك فليس معنى القدرة على الكتابة النضج الفني، فهذا الأخير قد يأتي مع الوقت والممارسة وقد لا يأتي. ومن هذا الخلط بين القدرة الآلية على الكتابة وبين الكتابة الناضجة فنيا تأتي هذه الفوضى الحالية للتقويم النقدي، ذلك ان التمييز بين عمل روائي ناضج فنيا (أو ناضج بعض النضج) وبين أعمال مكتوبة آليا (وعشوائيا ربما) وبحكم الاعتياد وبدون هدف فني واضح، هو أصعب ما يعانيه لا جمهور القراء فحسب لا النقاد أيضا.

وبسبب هذا الافتقاد للنضج الفني فقد جاءت (بصقة في وجه الحياة) ثمرة فجة قطفت قبل أوانها ويجب أن تؤخذ على

هذا الاعتبار. لقد كانت لي عملا من أعمال إعادة التوازن الشخصي وترميم ما تخرب من ذاتي بسبب ظروف إحاطتني ووجهت لذاتي الوجودية خاصة، ضربات متتالية.

-٤-

كنت في الحادية والعشرين من عمري أنام بمفردي في غرفة صغيرة جدا شبه جرداء تلطخ جدرانها بقع الرطوبة على جانب من حوش دارنا المستأجرة في (رأس الساقية) احدى محلات (باب الشيخ).

كنا نعيش أنا وعائلتي في حالة مستمرة من العوز المادي بعد وفاة والدي سنة ١٩٤٢. ورغم اعتزازي بما أملك من طموح أدبي لا أساس له وشعوري بأن من الممكن - بسبب هذا الطموح - عدم الاكتراث بالحاجات المادية، إلا ان التباعد الكبير بين مظاهر الترف المحيطة بي في الكلية وبين ما أعيشه، لم يجعل الأمر خاليا من المرارة دائما. لم أكن شقيا ولا كانت الظروف تسمح لي بسعادة حقيقية مستمرة، وكان الحرمان متنوعا تحاصرني من كل الجهات. فعدا الحاجة المادية التي تحز على الدوام (الملبس والمأكل الملائمان والراحة المعقولة في المسكن وامتلاك حد عادي من المصروف لأغراض التنقل وشراء بعض الأشياء التافهة أو مشاهدة الأفلام السينمائية وغير ذلك من الأمور المسلطة على الفرد من قبل مجتمعه والتي

كنت أفقر من أن أمارسها) كنت أحس إحساسا ذا مستويات عديدة بحاجة الى وجود الجنس الآخر في حياتي، وجود الأنثى رفيقة الشباب، الصديقة الذكية المتعاطفة. هذه الحاجة العظمى لشاب حساس متأدب، التي تأخذ من الوجود الروحي بقسط كبير ومن ضرورات الجسد بقسط أخر، كانت قمة الحرمان.

-٥-

كنت أجمع بين الدوام الصباحي في كلية الحقوق والدوام الوظيفي (إذ كنت موظفا في وزارة العدل) ثم حدث لي بداية سنة ١٩٤٨ تخريب حياتي كبير تبعه إحباط أكبر منه فرحت أهمل حضور دروسي في الكلية وأفضل عليها نوما صباحيا لذيذا أقوم بعده متكاسلا للذهاب الى دائرتي حوالي الحادية عشرة، كأني أقبلت بعد انتهاء دروسي في الكلية. كان طبيعيا بعد ذلك أن أكمل في ثلاثة دروس أولا ثم أن أحرم من الاشتراك في الامتحان الأول لتعدد غياباتي.

ورغم هدوئي وعدم اكتراثي فقد هزتني هذه الأحداث اللامتوقعة وشعرت بوحدتي تتعاظم على حين غرة.

تلك صور من الماضي، مؤلمة تبعث على الاضطراب والأسى، فبعد جهود شاقة مهينة استطعت أن أدبر قبولي في الامتحان الأخير وكان علي أن أجتاز امتحانا عسيرا في أكثر من عشر

مواد قانونية متعبة ومزعجة وبعيدة عن ذوقي.

كنت وحيدا في بغداد فقد سافر أخي نهاد والعائلة الى بعقوبة حيث عين حاكما وتوجب علي البقاء في هذه المدينة المفترسة متطفلا في السكن بدار أحد أخوتي الكبار.

-٦-

يتبدى عداء العالم من خلال تقاليد المجتمع الذي تؤسسه سلالة طويلة من الأغبياء وقصيري النظر. ولأن الفرد لا يلمس لمس اليد جوهر هذا الغباء المطبق ولا سببه فإنه يتوجه الى العالم ككل بلعناته مغتاظا من عجزه عن تدميره تدميرا كاملا.

-٧-

في حزيران ١٩٤٨ بدأت كتابة (بصقة في وجه الحياة) في دفتر صغير وبحبر أحمر. ولكم آلمني بعد ذلك أن أفقد تلك الأوراق رغم اعتزازي وتعلقي بها.

-٨-

كنت أستيقظ متأخرا في الصباح بسبب سهري حتى ما بعد منتصف الليل منكبا وأنا في فراشي على قراءاتي الأدبية. كانت الغرفة باردة وكنت مضطرا أن أضع معطفي البالي على كتفي ليمكنني من تحمل البرد.

بعد الفطور الذي أعده بنفسي - فقد كانت والدتي أكثر

مرضا من أن تقوم بذلك – أخرج متأبطا كتبي الأدبية على الأغلب، إذ نادرا ما كنت أحمل غيرها معي. وفي انتظاري لمجئ باص الأمانة في شارع غازي أبقى أتفحص نقودي المعدنية القليلة لأتأكد من وجودها في جيبي ثم أتمشى بعد أن أصل باب المعظم الى كلية الحقوق في بنايتها التي شيدت قبل سنوات قليلة. هنالك، بجانب سياج الكلية، تصطف سيارات التلاميذ الأغنياء على الجانبين. وهنالك كانت غربتي فأنا لا أتابع الدروس القانونية بجد ولا أهتم بها إلا حين يقترب الامتحان. ومع بداية شهر مايس من كل سنة كان القلق يأخذ بخناقي، وقد أخذ بخناقي هذه السنة أيضا –١٩٤٨– وكنت في وضع نفسي سئ شبه متهدم من الداخل ولم يكن منطقيا أن تنجدني كتب القانون وتبث الحياة في إرادتي الخائرة.

كنت أمام حل وحيد، طريق مفرد، هو الكتابة. وهكذا فعلت في ذلك الوقت في ذلك الحزيران من سنة ١٩٤٨. ومع ازدياد المصاعب والمحن والتفافها حولي باستمرار كنت أقاوم متشبثا بطوق النجاة النادر ذاك.

أنهيت هذا النص في آب سنة ١٩٤٩ وكنت منتصرا قبل أن أدخل المعركة. نجحت في امتحاني العسير لأنني كنت قويا خلاله. وكنت قويا لأنني أكملت عملا استثنائيا من أعمال تصفية الذات.

-٩-

هذا إذن نص نادر واستثنائي في مسيرتي الكتابية وهو الوحيد الذي عنيت بتقديمه لأنه برغم فجاجته الفنية وسوقيته أحيانا وركاكة لغته، لا يزال يذكرني ليس بعالمي الذي اندثر بالكامل بل بوضعي النفسي المتأزم آنذاك وبالطريقة الصحية الفذة التي اتبعتها للخروج دون أذى كبير جدا من هذه الأزمة ذات الجوانب المتعددة التعقيد.

-١٠-

ليس من حق الانسان بطبيعة وجوده أن ينتصر دائما وبشكل تام. وعليه إذ يدرك ذلك أن يسعد بانتصاراته الوقتية الناقصة.

فؤاد التكرلي

تونس في ٣٠/٤/١٩٩٨

١٦نيسان ١٩٤٩

تن.. تن.. تن..

ثلاث دقات رهيبة تعلن اقتراب الصباح، وأنا، ذلك الأب المسكين، لا أزال جالسا في غرفتي منكمشا على نفسي، أحاول جهدي أن أتبين هذه الكلمات على ضوء المصباح الضئيل البعيد.

السكون عجيب هذه الساعة من الليل، الساعة التي تسبق انبثاق الفجر.. انبثاق النهار.. انبثاق الحقيقة. وأعجب من هذا السكون ذلك الهدوء النفسي الغريب الذي يوقد في داخلي دون حراك.. دون اضطراب كالماء الآمن الأخضر في المستنقعات العميقة. لم يمض وقت طويل منذ أن أقبلت فاطمة، منذ أن نزلت من سيارة التاكسي، منذ أن أرسلت ضحكة مكتومة قصيرة قبل أن تفتح الباب وتودع الزبون الغني.

أجل.. لم يمض وقت طويل؛ لكنهم – جميعا – قد اخلدوا إلى السكينة بسرعة مريبة؛ إنهم في بعض الأحيان يخشونني، أنا الأب الساكت دائما؛ يخشون سكوتي أو لعلهم يخجلون منه، آه.. هل قلت يخجلون؟

ترى ألا زالت هذه الكلمة تجد من يستعملها؟

أسمع حركة في الغرفة القريبة، لا شك أنها فاطمة. إنها لا تستطيع النوم بسهولة ويسر مثل اختيها ساجدة وصبيحة أو مثل أمهم الضخمة السوداء.

إني لأرثي لها، إني لأرثي لهم جميعا. إنهم يمثلون لي الحياة بكل صورها ويعيدون إلى ذهني كثيرا من ذكريات الحوادث التي مرت عليّ.

أتذكر، عندما كنت معاون شرطة قبل التقاعد، حين كان المفوض يدخل عليّ في غرفتي وعلى فمه ابتسامة كريهة، فيمد يده، خلسة كأنه يستحي ويضع النقود في زاوية معهودة من مكتبي ثم يروح يشرح القضية التي أتى من أجلها ويقترح الحل كما يريده أصحاب النقود، ثم يسكت وينتظر جوابا مني، كما انتظر هؤلاء الجواب، لكنني كنت أسكت وأطرق برأسي فيخرج بهدوء دون أن أعلم ماذا فهم مني وماذا هو فاعله.

والآن، إني أرى الأمر كذلك، فتاة – بل فتيات – تُرك الحبل لهن على الغارب؛ فلا أب يسأل، ولماذا أسأل... حقا لماذا؟ ولا أم تسوسهن؛ فصرن يعبن من لذات الحياة عبا ولا يشبعن من ترفها قط.

إني أعلم أنهن يعملن ما يشين، ولكن ألم تكن أفعال المفوض المستوحاة من سكوتي، ألم تكن مشينة تلوث الاسم؟

بلى.. إنها كذلك.

غير أني مع ذلك أتألم أحيانا، أتألم ألما غريبا حين أتطلع إلى وجه فاطمة الأسمر الرائع القسمات، وقد بدا الإجهاد جليا عليه وأطل التعب والملل من عينيها الصفراوين الصافيتين؛ لكنني لا أفصح عن ألمي هذا، إني أراها أجنبية عني، أعجب بها لا كما أعجب بابنتي، بل بفتاة صغيرة جميلة تتفجر شبابا ورغبة في الحياة.. وليس غير. فسرعان ما أخفي لهذا ألمي وأطويه بين جوانحي وأنصت إليها وهي تكلمني بصوتها العذب اللين كلاما لم ينته يوما إلى نهاية ما. إنها تتكلم في كل شيء، تجد لذة في الحديث عن كل ما يخطر ببالها أو ببال محدثها، فإذا تكلمت تلاينت الألفاظ وهي تخرج من فمها وانطبق جفناها بسكون بين آونة وآونة وتحركت يداها حركات ناعمة رشيقة تناسب موسيقى صوتها، فتسحر محدثها وتسحق شخصيته سحقا بين أناملها الرقيقة.

لا أزال أتذكر يوم كان أحد أقربائها - يقولون إنه قريب بعيد - جالسا معنا، أنا والأم والأخوات، كيف كان يتمتم

وهو ينظر إليها تحدثه:

- "سبحان الله.. يا سبحان الله".

إن من الجميل حقا أن تكون للإنسان فتاة جميلة رائعة يعيش معها.

بدأ النور يزداد رويدا رويدا، ولقد وضعت القلم زمنا طويلا ارقب النجوم تخفق قبل قدوم الصباح، فساورني قلق بهيم آلمني.

لماذا أدعهن – هؤلاء الفتيات – يعملن كل هذه الأعمال الخرقاء؟

لماذا أسكت وألبث مطرقا؟

إني أعلم السبب، إنني أعلمه تمام العلم.. تمام العلم.

لقد صفعتني به الأم الحكيمة قبل أيام.

-ألا ترى أننا لا نملك ما يقيتنا؟ من أين..؟

ولم تكمل لحسن الحظ، ولم أكمل أنا أيضا ما بدأت.

إني أعلم أنني لا أملك موردا يمون نصف منزلنا.. منزلنا الفاخر ذي الرياش والأثاث الثمين الذي لا أعرف بوجوده حتى أراه صدفة، إني أعلم ذلك، وإني أتساءل "إذن فكيف أمكننا الاستمرار على المعيشة هذا الزمن الطويل.. خمس سنوات؟"

وفي الحال تقفز أمام عيني صور الأخوات الثلاث..

صبيحة ذات الجسم الممتلئ وساجدة بقامتها النحيلة ثم..
ثم فاطمة؛ وما تمر لحظات حتى تختفي صور اثنتين منهن وتلبث أمام بصري صورة واحدة.. صورة واحدة دائما.

انتشر الفجر

أواه أيها الفجر. أواه أيها الفجر؛ ألا تستغرب أن يخاطبك مخلوق مثلي؟

ولكن لا تجبني، دعني أتعلم السكوت منك.. ومن الليل.. ومن النجوم.. ومن كل شيء، فما حياتي إلا سكوت.. وسكوت.. وسكوت.

لا أدري هل سأحرق هذه الصفحات كما أحرقت سابقتها؟

لقد تألمت لما عملت. سأبقي عليها إذن وسأبقي على ما أكتب في المستقبل، علني أفيد شيئا.. شيئا يشبه العزاء.

٢٨ نيسان ١٩٤٩

ماذا يبعث فينا الماضي حين نسترجعه؟

لقد عرفت ذلك الساعة، الآن منذ لحظات، حين قرأت ما كتبت قبل أيام؛ إنه يعرض حياتنا بسكون وهدوء، وهو في عرضه هذا صامتا.. ساكتا، يهمس ولا يرفع صوته ويترفق بنا ولا يقسو. هذا هو كل شيء يسمى الماضي.

لعلي سعيد الآن، لم يمر ما يزعجني نهار اليوم، فلقد قضيته جالسا في البيت لم أخرج قط، وكانت فاطمة معنا أيضا.. معي ومعهم !

في أيام، وقد لاحظت منها ذلك، يبدو الضجر عليها من كل شيء، حتى من أصدقائها الأعزاء الذين تقضي جل أوقاتها معهم، فتبقى جالسة في البيت تحادث أختيها وأمها وتحادثني أنا أيضا، وهي في ذلك ساكنة راضية على غير طبيعتها الحارة اللعوب.

ولم تستيقظ اليوم نهارا إلا حوالي الساعة الثانية عشرة، وقبل استيقاظها بساعتين حدث ما عكر علي صفوي تعكير عجيبا.

في تمام العاشرة دق جرس التيلفون فركضت إليه وكنت في صالة الدار بمفردي، فسمعت صوت رجل يسأل عنها،

وكان نلك أمرا اعتياديا لا يوجب الإستغراب، إلا أنه كان يؤلمني دائما.

كان يسأل عنها فأجبته أنها لا تزال نائمة،؛ أجبته بلهجة جافة صلبة، فهتف بصوت المروع:

– نائمة؟ يا إلهي!

ثم أردف مرة أخرى متضرعا:

– أرجوك، أأنت متأكد؟

ولو لم أشم في صوته رائحة التضرع والتوسل لصرخت فيه مرة ثانية بما أسفلت، لكنني وقفت مطرقا بعد كلماته تلك وخطر في بالي "وما يعنيني أنا الأمر؟" ثم قلت له:

– انتظر لحظة.

وحقا.. ما يعنيني أنا الأمر؟

لقد أديت واجبي قبل وقت طويل حين أولدتها وأخرجتها للحياة، وأنا الآن لا أملك إلا أن أرقب حياتها كيف تجري وكيف تتقضى.

دخلت عليها في غرفتها، كانت نائمة، ولقد رأيت ذلك بأم عيني، لكنني مع هذا لم أخرج في بعض الأحيان تمسكنا أياد خفية سحرية من جميع أطراف الجسم فتسمرنا في أماكننا وتجعل منا جمادا لا حراك فيه، وفي رأيي، ما هذه الأيادي الخفية إلا رغبة عميقة في ظلمات أنفسنا تسيطر

علينا في لحظات سيطرة تامة فتحيلنا إلى أداة صلدة لا تعمل عملا غير أن تراقب وهي في ذلك مشلولة الحركة جامدة الذهن.

ما الذي أوقفني كل تلك المدة الطويلة أنظر إليها، وأنا عالم أشد العلم بأن مهمتي التي أتيت من أجلها قد انتهت، ولم يعد لوجودي سبب ظاهر معقول؟

ذلك هو السر الذي أجهل.

كانت تحتضن اللحاف بصورة شاذة كعادتها منذ كانت صغيرة ابنة أربع سنوات وكانت ساقها اليمنى عارية حتى نهايتها وقد مددتها على اللحاف بارتخاء فبدت بلونها الأسمر الخفيف وشكلها الرائع الفذ، تأخذ بمخانق العقل وتؤجج نار العاطفة المحرقة.

اضطربت أنفاسي وتسارعت، فرفعت نظري من ساقها إلى وجهها فرأيتها مغلقة العينين تتنفس بصوت هادئ رقيق، فأنزلت عينيَّ إلى صدرها فرأيت شق ثوبها يبدي قسما من نهدها القوي وهو يتابع أنفاسها بحركات رتيبة مثيرة، فملكني دوار عجيب واتكأت على منضدة قربي كيف أصبحت امرأة هكذا بمثل هذه السرعة؟

لقد كنت استغرب أن يهتم بها ذلك العدد الكبير من الشبان، فلم أكن أرى فيها شيئا يثير؛ أما الآن فلقد وضح

لي كل شيء.

خرجت مضعضع الحواس شارد اللب فوضعت التليفون مكانها ثم قصدت الحديقة استنشق هواء الصباح، وقد راعني الأثر العميق الذي تركته في نفسي، فلم تتمكن مناظر الحديقة ولا هواؤها البارد اللطيف من تهدئتي وإراحة بالي. حسبت سني حياتها فإذا بها لاتجاوز الثانية بعد العشرين؛ ياللعمر الذهبي!

هكذا قلت لنفسي وأنا أروح وأجيء في أطراف الحديقة، وقد راحت تدهشني الأفكار الجديدة التي أخذت تنبثق في ذهني لتجلي لي حقائق كانت تحت متناول سمعي وبصري لكنني لم أكن ألتفت إليها.

في الثانية والعشرين، أما أنا فقد جاوزت الخامسة والأربعين فياللفرق بين العمرين!

وفجأة تنبهت إلى سخافة أفكاري وبعدها عن المنطق والعقل، وأحسست إحساسا غامضا أنني أقاد معصوب العينين إلى هاوية سوداء لا أعرف لها قرارا.

لا أنكر أنها كانت أمامي صبية جميلة بل رائعة الجمال، غير أنني صرت أنظر إليها كأمرأة جميلة فتانة !

ولقد أثار استغرابي ما بدأت ألاحظه في وجهها وفي جسمها وفي حركاتها؛ فها شفتاها بتقوسهما وحمرتهما

الصارخة تظهران مغريتين شديدتي الشهوة، وها عيناها الواسعتان تلمعان بلمعان نسوي محرق.. لسان اللهفة إلى التملي من منظر الرجل.. الرجل القوي، وهاهو جسمها الفتي، لكأنه ينادي بإلحاح ورغبة ملتهبتين.

رباه.. إلى أين تقودني الحياة هذه الحياة القاسية، القاسية حتى الموت التي تظهر لبصري الطريق الفظيعة البشعة وتجبرني على السير فيها؟

طردت من ذهني هذه الأفكار؛ ولقد كلفني ذلك ألما نفسيا عميقا، وجلست أتكلم معها والجماعة من حولنا، وكأننا لاشيء غير أب وابنته. آه.. وما نحن غير ذلك؟

فظيع.. فظيع حقا؛ إنني أخشى من الأفكار التي تريد أن تولد في ذهني، الأفكار التي حبلت بها عواطفي زمنا وهي الآن على وشك الوضع.

لم أستطع النوم حتى هذه الساعة من الليل، كانت غريزتي الجنسية ثائرة، ولقد صدمني هذا الأمر لظني بأنها على وشك الخمود إلا قليلا، فاقتربت قبل ساعات من الزوجة "العزيزة" إلا أن اشمئزازا شديدا فأجأني وطردني عنها، فانزويت في غرفتي اكتب هذه الكلمات المعذبة بلهفة وشوق وأنا أشعر اني أضمد جراحي ذات السموم،

وأضمد مكانا من جسمي أشعر أنني سأجرح فيه عن قريب.

رحمتك ياربي، لا تدعني أكفر بك وبما انزلت، لا تدعني.. لاتدعني.

١٠مايس ١٩٤٩

إني لا أريد الكتابة الآن، هناك طبيعة فيَّ، أو قل عادة متأصلة، تحملني وتحبذ لي السكون والصمت؛ ولقد لبثت تحكمني هذين الأسبوعين السابقين لكنني، تغلبت عليها أخيرا، تغلب عليها إحساس آخر أقوى مني ومنها وأشد عودا.. إحساس بالخوف.

أجل إني أخاف، أخاف أن ألبث ساكتا مطرقا، أتظاهر أن الأمور الجارية لا تهمني في كثير أو قليل، لأنني أعرف نتيجة هذا السكون، أعرف تمام المعرفة.

ثلاثة عشر يوما والشك الفاتك السام يخزني كل لحظة من لحظات النهار وكل ساعة من ساعات الليل، وأنا على ذلك صابر لا أريد أن أنظر في دخائل نفسي إلا إذا دفعتني الظروف إلى ذلك دفعا، فلا أكاد ألقي هذه النظرة حتى تدمى جوانحي وتتحرق جروحي فأنهزم كالمجنون المتألم لا ألوي على شيء ولا أريد أن أرى شيئا.. لا أريد إطلاقا. غير اني لا يمكن أن أعيش هكذا، ولقد علمت ذلك أمس. إن الطريق مهما بدت شنيعة مؤلمة قاتلة فخير لي أن أرى هذا وخير لي أن أكاشف به نفسي.

قرأت قبل أيام كتابا عن الطبيعة الجنسية في الإنسان،

هذا السيل الجبار، ففهمت ما أراحني بعض الراحة. ذلك إن الرغبة الجنسية قد تتأجج في نفس الرجل وهو في طور الكهولة فتلح عليه بقوة وبسطوة تماثلان - إن لم تزيدا - على إلحاحها عليه سنوات شبابه الأولى. لم يكن الأمر غريبا جدا؛ ولم يخطر ببالي، أنا الرجل المتزوج، أن من الصعوبة بمكان أن أشبع هذه الرغبة، فحاولت.. إلا أنني فشلت.

لم يشعر بفشلي أحد، فكثيرا مارقدت بجوار زوجتي ساعات دون أن يخطر لها أنني أحاول عملا فلا أستطيعه.

كانت كأنها جثة مشوهة تشمئز منها النفس وتميل عنها، فهربت من قربها وأسرعت فانزويت في ركن من أركان غرفتي لاهثا.. متعبا.. يتصبب العرق من جبيني. وكنت أحس في دخيلة نفسي أن محاولتي المقبلة ستكون كهذه السابقة. كانت كأنها قطعة من جيفة نتنة لا يمكن للمرء أن يقترب منها، فكيف به إذا أراد أن يجد فوق راحته قربها لذة إلهية عميقة؟ وهذه الغريزة الطبيعية المتأصلة فينا كم تبدو كريهة ثقيلة لا تطاق حين ترقد في أعمق أعماق النفس حارة كالنار آكلة كالحامض المركز، لا يملك الشخص لها مصرفا ولا يستطيع أن ينساها فتتنكد عليه عيشه وتصبغه بصبغة حمراء لا تتغير. ومع ذلك تقول له الحياة - عش فهذه وسائلي، ولن تجد لها بديلا.

كانت هذه المحاولة الأخيرة قبل أسبوع أو أقل، وقد بقيتُ تلك الليلة جميعها سهران لا يهدأ لي مرقد، حتى إذا أصبح الصباح قمت من الفراش كما يقوم مريض هدت من حيله حمى شديد مهلكة؛ وكانت الأفكار تشغلني ولم ينجني منها هواء الحديقة البارد؛ فانعزلت طيلة اليوم لا أريد أن أكلم أحدا مع محاولاتهم المتكررة لحملي على الحديث؛ حتى إذا ضجروا مني خرجوا جميعا ليذهبوا إلى بيت جيراننا حيث تأمل الأم الكريمة. زوجتي.. أن تزوج واحدة من بناتها أحد أولادهم.

فلما كان العصر ونهضت من نومي، رأيت فاطمة على وشك الخروج مع ساجدة وهي ترتدي ثوبا أسود أضفى عليها رونقا عجيبا من السحر مع كون بشرتها سمراء قانية، فسألتهما أين تذهبان، فأجابتني ساجدة وهي كعادتها الأزلية تلوك "العلك" بين أسنانها:

– بابا مع جماعة صديقات.

بينما كانت فاطمة تسوي الثوب على جسمها وهي تغمغم أغنية عربية، فانكفأت عنهما وأنا أكتم رغبة قوية في منعهما من الخروج وذهبت إلى غرفتي.

كان الجو فيها خانقا، فخرجت أتمشى في الحديقة فلم استسغ ذلك، فخطر في بالي أن أذهب إلى المقهى.

ليست ملابسي، وفي طريقي إلى الخارج مررت بغرفة فاطمة، كانت مفتوحة الباب فرأيت هذه الأخيرة جالسة تلبس حذاءها وهي تضع ساقا فوق ساق بحرية وعدم اهتمام فتظهر أعالي رجليها بصورة جلية غير مستساغة.

آلمني هذا المنظر، وخيل إلي أنني حانق على أشخاص مجهولين؛ وصارت تتتابع في ذهني ذكرى سهرات فاطمة.. سلسلة من الذكريات؛ وطراز عيشها المستقل والحوادث.. بل قل الفضائح التي أثارتها منذ زمن غير بعيد.

هذه ابنتي!

أهذه هي وظيفة الرجل؟ انتاج هؤلاء الدواب.. لتسلية الآخرين؟

لِمَ أرضى؟ ألأنها سنة الحياة؟

وهل هي نفسها سنة الحياة التي أعطتني تلك المرأة الضخمة التي لا يمكن لرجل أن يقربها؟

وكانت هي أمامي، زوجتي الكريمة، تسألني متثائبة:

– خارج؟

كان شعرها منكوشا أسود كالإسفنج، لا أدري كيف ولماذا يشبه الاسفنج، ولم تكن تخفيه كعادتها تحت الفوطة، فتملكني اشمئزاز وقلت :

– حسنا، هل ألبس ثيابي لأجلس أمام أمثالك؟

واندفعت راكضا إلى الخارج.

لِمَ أذكر هذه التفاصيل كأنني أريد أن أجد مخرجا لي مما عملت؟ وفي الحق لم يكن يدور في خلدي أن أجد لنفسي عذرا يبرر جولاتي الليلية التي قمت بها ذلك المساء بالذات.

ماذا أستطيع أن أعمل؟ إنني مجبر، إنني مقيد.

لبثتُ جالسا في مقهى فتاح، وهو محلي المختار، وقد ضاق صدري وصغرت الدنيا في عيني وعدت أرى سخفا في كل ما كان يقع تحت بصري، إلا النساء.. إلا النساء كنت أجد فيهن المنظر الذي يريحني ويطمئن إليه قلبي.

كان جو الشارع يبدو وكأنه مشبع بضباب رمادي غير مرئي، وكانت الأبنية العالية تقبض نفسي كما لو كانت تحبسها في قنينة صغيرة مختومة، فاستقر عزمي فجأة على الذهاب إلى "الباب الشرقي" علني أشم هواء نقيا يرجع لي صفائي الضائع.

كنت حائرا. ولقد سألت نفسي عدة مرات وأنا في سيارة الباص، كيف سأقضي وقتي؟ وإلى أين أقصد الآن؟

فلم يأتني جواب، وبقيت حائرا بينما السيارة تطوي الأرض وتقلق عظامنا.

هذا الخلو في حياتي، في حياة الإنسان، كل إنسان، بدا لي دون فائدة للبشر، هؤلاء الحيوانات المطلقة؛ وخطر لي أن

هذه الحياة الناقصة التي نعيشها لا بد وأن تكون من صنع شيء ناقص أيضا.. شيء لا يدري ماذا ينقصه.

ولقد رفهت عني هذه الأفكار قليلا وأنستني نفسي زمنا، حتى إذاصعدت إلى السيارة فتاة في العشرين من عمرها حسناء وجلست على مبعدة مني، عدت مرة أخرى أشعر بمرارة هذا الخلو الفظيع تحيطني نظرت إلى الفتاة لم تكن جميلة جدا، أو على الأقل ليست أجمل..

آه.. كان يجب أن يقف القلم بي إلى هذا كما توقفت أفكاري هنيهة؛ لكن أفكاري لم تقف إلى الأبد، لم تقف غير هنيهة قصيرة ثم استمرت بعدها جارية إلى الأمام جريئة.. محطمة، لا تلتف إلى الخلف.. لا تلتفت قط.

هنالك أمامي الشيء الذي أبحث عنه، ولقد أضعته زمنا ولا أزال كذلك، بفرق واحد هو أنني في أثره الآن، ولن أفقده مطلقا هذه المرة.

صرت لدقائق، أقارن بين هذه الفتاة وبين فاطمة.

كيف خطر لي ذلك؟ لا أعلم والله، إلا أنها تلك الحيوية المستورة التي تدفعنا في خط متعرج نحو غاية قد تكون سامية أو تكون دنية، لكنها في الحالين بعيدة قصية.

كانت السيارة وصلت "الباب الشرقي" آنذاك، فنزلتُ مع من نزل باديا عليّ كأنني أقصد محلا معلوما، بينما كنت في

أشد الحيرة والضجر وأنا أحاول معرفة قصدي من هذه السياحة القصيرة.

كانت الفتاة في العشرين تسير على بعد خطوات مني، وكان جسمها بديعا وشعرها طويلا أعجبت به، فسرت خلفها وشعرت حالا أنني وجدت غاية يمكنها تعزيتي بعض الوقت، كانت أمامي بحيث يمكنني التملي من رؤية جسمها الخلفي بصورة جلية؛ وقد لبثت اتطلع إلى شعرها فترة وأنا أشعر بجمود عاطفي شديد، ثم انحدرتُ ببصري إلى عظام كتفيها وكانت بارزة قليلا تسبغ على مظهر الفتاة ضعفا انثويا جميلا، هذا الضعف الذي يبدو ضروريا كي يشعر الرجل أنه قوي اتجاه المرأة دون أن يحاول الإطمئنان إلى هذا الاعتقاد بالبراهين والأدلة والوقائع، لأنها تنقصه بالتأكيد عثرت الفتاة وهي تجتاز ساقية اعترضت طريقها، فنزلت بعينيّ مسرعا نحو ساقيها العاريتين. كانتا ببشرة بيضاء، متناسقتين في بعض السمنة المثيرة، تختفي عضلاتهما وراء لحم غير كثيف موزع بصورة تكاد توهم أنها اعتناء وهي ليست من الإعتناء أو الإهتمام بشيء، فما وجدت إلا.. إلا هكذا رمية من غير رام.

أجل رمية من غير رام، فلا شك عندي ولا ريب مطلقا أن

أباها، أوحتى أمها، لم يفكر فيما يمكن أن يكون شكل ساقي ابنته. كان همه أن يوجدها.. لا غير. ولعله لم يخطر بباله مثل هذا الأمر البسيط كذلك، لعله لم يكن يريد سوى أن يتصل بأمها، أن يشبع رغبة جنسية طارئة أو رغبة في السيطرة، أو لعله اتصل بها لأنها زوجته.. فقط، أو – ولِمَ لا؟ – قد يكون محتاجا لشيء ما تملكه فأراد إرضاءها!

سبحان الله! وبعد كل هذا، ماأبعد سبب وجودها عن هذا الجمال في ساقيها الذي اتمتع به الآن! ومع ذلك، فهذه هي الحياة بكل أسرارها وغوامضها التي لا تحل ولا تفهم. لا شيء سوى صدفة، صدفة محضة سخيفة ركيكة حقيرة.

هذه الحياة التي تخيف وترجف القلوب وتحد من أعمالنا وتشذب من رغابتنا، ما هي إلا صدفة، ما هي إلا أكذوبة صغيرة لا يمكنها حتى أن تضحكنا.

ولم تكن هذه الخواطر تمر بفكري كما تمر بأيدينا على سطح الماء. كلا كنت مؤمنا بها، وكنت أشعر بها تتلاطم في قلبي وتفيض منه، كنت أرى عواطفي تنطق بها مع دقات فؤادي ونبضاته، وكانت تسير في جسمي مسير دمائي، فهل كان غريبا بعد ذلك عليّ أن أعمل ما أشاء وأن أشعر بقوة لا تواتي الجبابرة ولا حتى الآلهة؟

كلا، أقولها متيقنا وأرددها أبدا.

كانت أستار الظلام شاحبة آنذاك وقد اقتربت الساعة من السابعة والنصف، وكنت قدضيعت أثر تلك الفتاة في العشرين، ووجدت نفسي بغتة قريبا من الكرادة وقد تجمعت قطرات العرق على جبيني وأحسست بجسمي نديا من أثر سيري السريع، فوقفت لحظات قرب إحدى المقاهي ثم دخلتها بعد تفكير قصير وجلست على كرسي قريب من الباب.

بقيت في مكاني نصف ساعة أو أكثر شعرت أثنائها بتجدد قواي، فقمت وركبت باصا مضى بي مسرعا نحو بغداد، نحو غاية أسعى إليها لأني قوي لا أخشى.. لا أخشى الحياة.

احلولك الليل حين وصلت" الباب الشرقي "فانتقلت إلى سيارة باص أخرى. كان الزحام شديدا فعاودني العرق وبدأ يضايقني لولا إن سارت السيارة فاندفع الهواء من نوافذها وخفف بعض الضيق عني، فبدا الهدوء علي في جلستي دون حراك؛ لكنه لم يظهر في عيني اللتين كانتا تبرقان أو تكادان، وتلمعان مثل شرر الجحيم.

كنت جبارا كالشيطان، ولم يكن يخيفني أمر؛ وكنت أتمنى لو تشكلت الحياة على شكل ما لعلمت مقدار تلك

القوة.. آه تلك القوة.

من يدرك ويتصور حالتي وأنا أكتب هذه الكلمات؟

إنني أضحك، أضحك بسخرية وهزء، اضحك بوحشية وفظاعة لا حد لهما.

من كان يمكن أن تتشكل الحياة على شكله، كما أردت؟

آه.. بودي أن أمزق هذه الصفحات وأنا.. أنا أضحك بتفجع.

كانت هي فاطمة، تلك الإبنة الحنون.

وعلى أية حال؟ حال لا تُرى إلا على المسارح: سيارة بيضاء طويلة لامعة كالمرآة، تسير ولا تكاد تمس أرض الشارع بعجلاتها اللينة، يجلس في محل السائق منها شاب أنيق غامض الملامح وبالقرب منه.. بالقرب جدا، الإبنة العزيزة.. الملاك السماوي!

كانت مرتدية ثوبها الأسود، ملتصقة به وعلى فمها ابتسامة رائعة، أجل هذا هو الوصف الملائم.. رائعة.

وفي الخلف، في زاوية من زوايا المقعد الخلفي، تتكوم مخلوقة كالخنفساء المنتفخة البطن، بوجهها الأسمر الذي يلمع من أثر العرق، وبجسمها النحيل.. البشع في نحوله، وبشعرها القصير الأسود، وبفمها الذي لا ينفك ينفتح وينغلق.. ينفتح وينغلق كالحذاء المشقوق.. كالمطاط

الأسود؛ ولم تكن غير ساجدة.

مرت هذه الصورة بسرعة وعجلة، فوجف قلبي لحظة وارتجفت كل عروقي وعظامي فصدر صوت عن احكتاك أسناني، وقمت بالحماقة التي كادت تودي بحياتي.

كانت باب الباص قريبة مني، وقد واجهتني حين نهضت فجأة دون إرادتي، فقفزت نحوها وفتحتها بقوة فسمعت صرخة الجابي فلم أبال بها واندفعت قافزا إلى الأرض.

كان الباص بسير ببطء ولم يكن هناك ما يخشى علي في قفزتي منه، وبالفعل استطعت أن أثبت على الأرض بعد أن أغلقت الباب خلفي بصوت رنان داو، غير أن الذي لم يخطر لي على بال هو أن تفاجئني سيارة؛ وذلك ما حدث تماما، فقد كنا في منتصف الشارع المزدحم، شارع الرشيد، ولم يكن غريبا أو بعيدا أن أجد نفسي بعد أن قفزت قفزتي الحمقاء تلك أمام إحدى السيارات المسرعة.

لم أخف ولم أنزعج، لم يكن لي مجال لمثل هذه المشاعر، واستمررت على ركضي؛ غير أن سائق السيارة الساذج عمل على تفادي دعسي فأدار الدفة دورة سريعة خطرة دفعت السيارة دفعة غريبة إلى اليسار فضربت الباص الذي طفرت منه وخلصت أنا معافي سليم الجسم.

ماذا جرى بعد ذلك؟ أنا لا أعلم، ولا أظن أن لي دخلا في

الموضوع كبيرا، فقد كان بمقدوري أن اختفي في زقاق يؤدي بي إلى ما أقصد، وقد فعلت.

مضت مدة وأنا أقطع أزقة مظلمة أتذكرها منذ أيام شبابي الأولى وقد عاد إلي روعي وأفكاري، حتى وصلت مكانا غير موحش تضيئه أنوار شاحبة وتسكنه أشباح لا تعمل إلا ليلا، وقت ثوران الشهوات.

كان مكانا يخشاه الشرفاء، يخشاه الجبناء.

أيتها النفس، أيتها البالوعة المفزعة، هل أرفع الغطاء عنك؟

آه.. لا تحسبوا القوة في؛ فما سألت إلا اعتباطا وإلا جبنا وخيانة.

كأن بغيتي كانت أن أسير تحت الجدران السوداء متفرجا متطلعا. أجل كأنني لم أعزم أن احقق ما تريده نفسي مهما يكن، بل كأنني جئت أضحك وأسخر، لا غير.

بقيت ساعة أو بعض ساعة أهرع من هنا إلى هناك؛ أنظر بفزع، بفزع لا باشمئزاز، إلى المخلوقات العجيبة، التماثيل المصبوغة، التي جلست متحفرة باعياء في كل مكان تنادي علي وترمقني كأنني فريسة ضعيفة؛ أنظر إليها وأرطب شفتي وامسح العرق عن جبيني. لم اخش منهن، لم اخش منهن مطلقا.. يقينا؛ لكنني، لعلي.. لعلي كنت أخاف أن

يضحكن علي!

أترى، حجة أخرى دامغة.

يضحكن علي !ولِم ولم أقل لأني فزع، جبان، وكيك، متهافت، شيخ، كلب، حشرة؟؟

لِمَ لم أقل ذلك؟ لِمَ؟ لِمَ؟

أيتها القانورات، أيتها السموات، اضحكن علي، اضحكن علي فإنني أنا السخرية الحق.

رجعت إلى البيت حوالي العاشرة مساء؛ كنت انسانا نبيلا حقا، شريفا حقا، جبانا حقا.

طرقتُ الباب. لا أزال أذكر كيف طرقتها. طرقات خافتة ضعيفة خائفة، كأنني لا أريد أن يسمعني بها أحد. لكنهم سمعوني مع ذلك؛ فانسللت كالطفل المتأخر في المجيء مساء واندفعت إلى غرفتي رأسا دون نظر إلى من كان آنذاك في الدار معي، متسلطا علي شعور قوي بالتخاذل والفشل والخجل.

كانت نفسي جمرة حمراء، لا تُمس ولا تقرب، فارتميت على الفراش واستغرقت في نوم عميق كالطين في قاع النهر.

لو أردت أن أكتب حوادث حياتي، لوجب أن أسطر هنا أحلامي، ولعلها كوابيس قبل أن تكون أحلاما، التي تراءت لي ليلتئذ؛ إلا أنني – وكما يجب أن يُعلم دائما – لا أريد أن

أحدد سير نفسي في طريق أجهلها.

وكما لا حظتُ مرارا، إن النفس لا تخضع في تطورها للترتيب الزمني الذي نشاهده في الحوادث والوقائع المرئية، ففي دقائق موجزات بل في لحظات خاطفات قد تقفز النفس إلى الأمام قفزة يستحيل على الحوادث المقيدة بالمنطق الزمني أن تصلها وحتى لو وقفت الأكوان كلها في جانبها. لهذا نهضتُ في الصباح الباكر وأنا لا ينقصني لأكون كما كنت أمس إلا التعب المضني الذي فارقني إثر نوم أمس؛ فرأيت المنتصرين - فاطمة وساجدة - لا تزالان تغطان في نوم هادئ لذيذ، لم تصحوا منه إلا والساعة تدق الحادية عشرة قبل الظهر.

كنت طوال الوقت، منذ استيقاظي حتى الحادية عشرة، ساكنا جامدا أنظر إلى زوجتي وصبيحة وهما تتحدثان وتثرثران دون أن أتدخل فيما كانتا تخوضان. ولم أكن أشعر بضجر أو أنني منتظر شيئا أو أنني ضعيف أو أنني منبوذ، كنت ساكنا فقط.

وقد أردت الخروج من البيت قبل الحادية عشرة، وكنت أرى في خروجي هذا، الإبتعاد عن الجو المخنق، إعادة لبعض الصواب لي. كنت متأكدا أنني لو خرجت لتبدل كل شيء بعد ذلك.

آه، كنت متأكدا تمام التأكد وأقواه؛ لكنني لم أخرج.

لبثت أتطلع إلى صبيحة، وقد لفتت نظري بجسمها الممتلىء المغري، فرحت أتمعن فيه دون أن أفكر قبل ذلك – هل يجوز لي هذا الأمر؟

كانت سمراء سمرة داكنة، ذات ملامح خشنة غير دقيقة، فعيناها واسعتان سوداوان وأنفها كبير مفلطح وفمها واسع ذو شفتين غليظتين قانيتي الحمرة وشعرها أسود كث. كان كل شيء فيها مثيرا، شهوانيا مستعدا لألم اللذة كل الإستعداد.

كذلك كانت أمها، ضخامة وسمرة وشعرا منكوشا كالقبر في لونه غير أن هاتين المخلوقتين لاحتا لعيني بريئتين بعض البراءة، مقادتين إلى غاية لا يبدو أنهما تحاولان التخلص منها.

سألتُ صبيحة متى أقبلت أمس فاطمة؟ فاضطربت قليلا وأجابتني أنها كانت نائمة وقتئذ؛ فارتحت إلى ذلك الاضطراب منها واكتفيت به.

خرجت زوجتي قبل الحادية عشرة، فبقيت مع صبيحة منفردين.

كانت هي التي تعتني بطعامنا، لهذا لم أكن أجدها إلا في المطبخ، تروح وتجيء تحمل هذا الصحن وتضع ذلك القدر

وهي أثناء ذلك كله تغني غناء متصلا.

دخلتُ المطبخ عليها فرأيتها جالسة تغسل أواني الأكل، وقد رفعت ثوبها قليلا وشدت شعرها بمنديل أبيض خوف إزعاجها، فظهرت مغرية، رائعة الإغراء، فابتسمتُ لها وأنا أنظر إليها نظرة متفحصة، فانقطعت عن الغناء برهة كانت كافية لديها لتعلم أن نظرتي غريبة، ثم أجابتني بابتسامة وقالت :

– مفلس بابا، أليس كذلك؟

فهززت رأسي نفيا وقلت :

– كلا.

ونظرت إليها نظرة أخرى من تلك النظرات:

– ربة بيت أنتِ، ربة بيت كاملة.

فلم تجبني تلك القذرة، تلك البهيمة؛ وكان سكوتها استسلاما.

خرجت مسرعا من المطبخ وأنا ألهث وأعض على شفتي، فواجهتني ساجدة وهي تتثاءب بصورة قبيحة وشعرها مقلوب أسفله أعاليه وعظامها تكاد تبين من تحت ثوبها الشفاف. وكانت تحك رأسها بيديها الإثنين فيصدر عنه صوت عجيب كصوت المنشار.

هتفتْ بوقاحة:

- هالو بابا.

فأسرعت أجوزها وأنا أتمتم:

- أيتها الخنفساء الأثيمة!

رباه، لم أكن عائشا على الأرض في جو طلق؛ كنتُ في دهاليز تحت طبقات الأرض السفلى، تحيطني الظلمة الخانقة ويلفني الهواء اللزج السام.

دخلت غرفتي والعرق يتصبب من وجهي، فشعرت أول دخولي أنني خائف، وأنني يجب أن أعمل شيئا، فحاولت جهدي التغلب على هذا الخوف. لكن محاولاتي لم تُجدِ ولم تزده الساعة التي قضيتها في غرفتي إلا قوة وعنفا وسيطرة.

وكنت خلال ذلك أسمع صوتها، وقد استيقظت، وهي تذهب وتجيء في البيت تغسل وجهها وتتزين وتضحك وتتحدث... وتتحدث في كل موضوع. ولِم لا؟ إنها ملكة، إنها سلطانة، إنها دكتاتورة، إنها إبنة السماء، إنها الله.

زال خوفي فجأة حين بدأت أنصت إلى كلماتها وأتسمع إلى أصوات حركاتها وأحصي خطواتها، وأخذتُ كالذئب أفكر في نفسي وفي الرغبات التي تجول فيها؛ فخرجت على إثر هذا وجلست في صالة الدار وحيدا فمرت أمامي بعد دقائق.

كانت رغبتي أن أراها؛ وقد رأيتها وهي ترفع شعرها الأسود الناعم إلى الأعلى وجسمها رشيق رائع الجمال في ثوبها القصير الأزرق، ووجهها بشحوبه الطفيف وتقاطيعه الدقيقة الجميلة يبدو أخاذا.. أخاذا والله.

دهشت لرؤيتها وإن كنت أتوقعها، وبقيت أتطلع إليها مذهولا فابتسمت بهدوء ومضت دون كلمة.

وهكذا انقضت الساعات، ومضى اليوم التالي. ولم يحدث لي شيء سوى أن الخوف قوى وتضخم حتى أجبرني فامسكت بالقلم. آه، هذا القلم المتعب الذي يكاد يخشى وتأخذه رعدة من الكلمات التي تجول في ذهني والتي أريد أن أخطها به، وها إني أكاد ألمح الصباح يعلن وجوده في نبضات النجوم القلقة المضطربة، فمتى.. متى أيتها الكائنات جميعا أعلن وجودي مثله؟

١٧مايس ١٩٤٩

هناك قصة تروى عن شبح عاش بين الناس تسع سنوات طوالا، يخدمهم ويقضي لهم حوائجهم ولا يأخذ على ذلك منهم أجرا؛ ولا أعلم كيف انتهت قصة هذا الشبح التعيس، وليست لي رغبة أن اتخطرها الآن، كل ما في الأمر أنني أتذكره هذه الأيام كثيرا لأنني أعيش مثله على هامش الحياة، بين أناس لا أشعر أنني منهم ولا يشعرون هم ذلك؛ أقضي ساعاتي كما لو كنت غائبا عنهم لا أراهم ولا يرونني بفرق واحد قد يبدو بسيطا هو أني أراهم، أراهم جيدا واحصي عليهم حركاتهم وسكناتهم كما لم يحصها عليهم من قبل مخلوق.

أجل، عاد إلي ذلك السكون المميت الذي فارقني زمنا، عاد فسيطر علي سيطرته السابقة المطلقة، وعدت معه ولا عمل لي سوى أن أعيش وان ألاحظ، وأحيانا أن ألاحظ قبل أن أعيش. ألاحظ أولئك الأناس الذين قُدر لي أن أُحشر بينهم، ألا حظهم وأراقبهم بسكون وصمت وهدوء. ولكن أي معنى يحمل هذا السكون وهذا الصمت وهذا الهدوء؟

أنا لا أعلم، وليست لي هواية خاصة في أن أعلم؛ فما الفرق بين أعمى وبصير، مادام الإثنان مساقين إلى هوة لا

محيد لهما عنها؟

فلنرح أنفسنا إذن، أليس كذلك؟

إني أقول نعم، وإن لم يكن هذا رأيي.

وعلى كل حال، فكم تبدو الحياة بسيطة حين نعيشها بنفوس بسيطة لا تحمل شرا أو فكرة شر! فلا أزال حتى الآن معجبا كيف أن مراقبتي للعائلة في الأيام الأخيرة، أظهرت لي اختلافا بين مظهرهم وبين ما يبطنون.

فهذه صبيحة، تلك الإبنة البريئة – ها.. ها – السانجة الصورة، وقد كنت أتفرغ لها منذ استيقاظها مبكرة في الصباح حتى نزول فاطمة، أقول مع سذاجتها الملحوظة وبراءتها وأحيانا غباوتها، كانت تقوم بأعمال طائشة أو على الأقل لا تدل على خوف أو خشية من أحد كائنا من كان، فهي الوحيدة بينهن التي تفكر وتتحدث عن الله كخادم صغير في قصرها دون تحرج ودون أن تستغفر بعد ذلك.

ولم تكن تبدي اهتماما يذكر بفاطمة أو أعمالها وأحاديثها. كانت تراها كأخت أصغر منها وأجمل، ولا شيء غير هذا.

إلا أنها لم تكن تستطيع أن تدع نفسها دون أن تتقصى أخبار جيراننا الشبان كل يوم. ولم تكن رغبتها، كما يبدو من تظاهرها بالاحتشام وغير ذلك، انها تريد أن تنشئ

معهم علاقة فقط، كانت فكرة الزواج تخطر في بالها؛ وكانت تجد من يساعدها ويشجعها على الأمر، تلك كانت الأم المحترمة، وكانت تجد أيضا من يسخر منها ويدعوها بالسخيفة الرقيعة، وكانت تلك ساجدة.. الفتاة الخنفساء.

أما أنا – ولا تظنوا أني نسيت نفسي – فكل ما كان بيننا هو أنني كنت أنظر إليها بإعجاب دائم. إعجاب بجسمها لا غير، إعجاب بريء؛ وإن بدت هذه الكلمة ذات وقع غريب في مثل هذا الجو، غير أن هذا الأمر لا ينفي أن تكون صحيحة. فقد كانت تمثل لي خير تمثيل جسم المرأة القوي الممتليء صحة وحيوية ورغبة مشتعلة في الحياة. كنت أُعجب بما يزخر به هذا الجسم الفتي من الرغبات الأنثوية الرائعة.

لكن الإبنة البريئة هذه ذات الجسم المثير، لم تكن تفهم على ما يظهر حقيقة نظراتي إليها وإلى ما تتحلى به من جمال جسدي؛ أو على الأقل كانت تفهم ذلك فهما خاطئا شريرا. لذلك لم يعد يدهشني، بعد أيام، أن وجدتها تقابل نظراتي إليها بابتسامة خفيفة تحاول أن تخفيها عمن يكون معنا، تحمل بصراحة – هذه الإبتسامة القذرة – معنى بليغا واضحا من معاني الاستسلام والخضوع.تف، ولكن كلا، رويدك.. رويدك أيتها النفس النبيلة، ولندع هذا الموضوع دون تعليق كاذب عليه، فلي أن أخادع وأكابر في كل مكان

إلا في مثل هذا المعبد، معبد الصراحة والحق.

كنت أنهض من نومي فجرا قبل أن تستيقظ واحدة منهن، فأجلس في صالة الدار ساعة أو بعض ساعة أخلو فيها إلى نفسي فأجد دقائق من الراحة والصفاء كانت تدوم حتى نزول صبيحة التي كانت تستيقظ عادة بعدي بقليل. وكنت أهتم بملاحظة صبيحة وتحليل شخصيتها إلى حوالي التاسعة والنصف، حين تقوم فاطمة من نومها وتنزل من السطح فتسرع متبرمة متثائبة، إلى غرفة الاستقبال لترتمي على أقرب أريكة لها مكملة ساعات نومها؛ الأمر الذي يدعوني أن استنتج ببساطة أنها لن تعد أمس إلى البيت قبل منتصف الليل.

ويخيل إلي ياصديقي، أننا يمكننا أن نستنتج ببساطة كذلك – ببساطة مرة – أنني كنت أنام حوالي العاشرة مساء، غير منتظر من يكون خارج البيت من أفراد العائلة.

ولم أنتظر؟

إنهن كبار، المفروض فيهن أن يفهمن الحياة، هه، أليس كذلك؟

وقد لا حظت في فاطمة أنها قليلة الكلام معي، مهملة لشأني إهمالا ظننته بادئ بدء حقيقيا لا زيف فيه، غير أني أخذت أشك في أنها تتظاهر به تظاهرا فقط، تدفعها إلى ذلك

عاطفة تشبه تأنيب الضمير وإن كانت قريبة من الشعور بالإثم، الشعور بالخطأ.

ويظهر أنها كانت تحس ذلك تجاهي أشد من إحساسها به أمام أمها أو أختيها، لأنني الوحيد من العائلة الذي يحاولون أن يكتموا عنه حقيقة ما تعمل، وإن فشلت محاولاتهم لحد الآن.

وعلى كل حال، فإن ما نتج من هذا الشعور بالإثم أمامي، إنها أقلت من اختلاطها بي ولم تعد تجلس معي إلا قليلا؛ فإذا وجهت إليها كلاما تظاهرت بأنها لم تسمعه، فإذا لم يفد هذا التظاهر أجابتني بإيجاز شديد قد يصل إلى حد كلمة أو كلمتين لا أكثر؛ ولكن ذلك لم يمنعني قط من الإهتمام بها.

كانت تتكلم كثيرا، في كل شيء وكل موضوع، وكان يبدو عليها أحيانا كأنها تحاول أن تخفي قلقا باطنيا عميقا أو فكرة لاتني تتردد على ذهنها فتؤذيها أو تزعجها على الأقل؛ وقد وضحت لي نفسها خلال الكلام الطويل المتصل الذي تملأ به أذن كل من يسكن الدار، فإذا بها نفس، مع هذه عدم المبالاة الظاهرة، رقيقة جبانة مترددة قلقة. فلم تكن تُقدم على عمل حتى تسأل عنه أسئلة طويلة لا معنى لها أكثر الأحيان غير دلالتها على مقدار تهجسها وترددها

وعدم استقرارها. ومن هذا علمت وظيفة تلك المخلوقة الكريهة ساجدة؛ حيث كانت تقوم بدور الدافع الأصيل لكل ما يبدو من فاطمة مع غباوتها المنقطعة النظير ونفاقها الذي لا ينتهي إلى حد.

نعم.. نعم، ولأجل هذا الأمر الذي لم أستطع تبينه فيما مضى، كنت أكره هذه الفتاة القبيحة كراهية عجيبة رسخت في باطني يوما بعد يوم.

وكنت ألاحظ زوجتي أيضا فأجد كثيرا من الإشمئزاز والانزعاج النفسي في هذا الاهتمام.

اهتمام؟؟ آه كلا، لا شك أنني لم أحسن التعبير جيدا، فهو ليس اهتماما قط، هو قريب من الاهتمام الذي نبديه بعقرب قبل أن نقتلها.. قبل أن نسحقها. اهتمام مع اشمئزاز، اهتمام مع كراهية، اهتمام مع تقزز.

ومع ذلك فقد اهتممت بها زمنا، إلا أنني لم أخرج بطائل. فما هي إلا كائن بشري ذو بشرة سمراء محترقة، يثير فضوله كل شيء إلا أنه لا يتدخل في أمر أبدا، تجري الحوداث أمامه كأنها حلم لا يستطيع له تبديلا.

تبديل !تبديل !ترى هل أستطيعه أنا؟

هل أستطيع هذا الأمر؟ هل أستطيع؟ هل أستطيع؟ هل..

٢١مايس ١٩٤٩

بدأن يشعرن أنني متغير، أنني لستُ كما عهدنني. ولقد رأيتهن يتفقن على ذلك فيما بينهن خلال نظراتهن التي تلتقي حين أتكلم كلاما غريبا، وخلال كلماتهن المتناثرة المتقطعة التي يعلقن بها على أفعالي. ورأيتهن يتفقن أيضا في الكذب علي بما كانت فاطمة تفعل؛ وهذا هو الأمر الذي أشعرني أنا شخصيا أنني متبدل حقا، متبدل في الظاهر على الأقل، أما الداخل فاترك الكلام عنه الآن.

كن قبلا يهملن إخباري عما يعملن، كأنهن ما قمن بشيء، لكنني كنت إذا سألتهن أجبنني بصراحة حينا وبالإشارات والتلميحات حينا وهن مضطربات منزعجات يملكهن شعور لعله الخجل؛ من يدري؟

أما الآن فقد اتفقن على الكذب إتفاقا تاما كامل الحلقة؛ فإذا كنت متأكدأ أن فاطمة مع ساجدة لم تعودا أمس قبل منتصف الليل، أجابتني الأم حتى دون أن أسألها بعض المرات، ووجهها الضخم المتجمد بشع براءة وطفولة.-

– منتصف الليل! حرام.. حرام، كانتا لدى جيراننا، وقد عادتا قبل آذان العشاء.

وماذا يُتصور أن جوابي يكون دائما؟ أبدي استغرابا

بريئا مثلها وأقول:

– يا للفتاتين الساذجتين! لقد ظننتهما عادتا في سيارة تاكسي عند منتصف الليل؛ ظلم!

فتهز رأسها وفي عينيها شعاع خوف ضئيل وتمضي عني لتخلو إلى إحداهن.

لاشئ بالطبع فإن تلك السخرية لا ترى أبعد من أنفها ذي المنخرين الواسعين.

ولكم أضحكتني لو تعلمون هذه الخطة التي بدأت تنتهجها قبل يومين حين كانت بالتعاون معهن تختلي بي بعد الغداء مباشرة فتجلس أول الوقت ساكنة مؤدبة – يا للفكاهة – ثم تبدأ كلامها تسألني:

– ما بك؟ هل تشكو شيئا؟ هل تشعر بمرض أو ما أشبه؟

فإذا رأتني أنظر اليها بسخرية مرة وعلى فمي ابتسامة صغيرة قالت ساعية الى غرضها رأسا:

– إنك متغير يا محي، متغير تماما. طباعك مختلفة هذه الأيام، لا تخرج من البيت، لا تتكلم كثيرا. تنظر الينا نظرات عجيبة كأننا غرباء عنك.

فإذا أخرجت صوتا بسيطا فيه صيغة السؤال والدهشة:

– ها؟

قالت محتدة شيئا فشيئا:

– لا تظن انني أقول هذا فقط. البنات كذلك لاحظنه وقلن لي عنه. أخبرنني كلهم عن ذلك: ماذا حل بأبي؟ انه لا يشبه أبي السابق. هكذا والله قالت فاطمة قبل أيام. ولا تتصورني أكذب عليك، فماذا يدخل في جيبي أنا؟

وقالت صبيحة كذلك: ان أبي هذه الأيام كالرجل الذي لم يعرفنا من قبل. ما أمر قولها. حسنا، انه في الحق مرير كالحياة لكنها مرارة لا تشعرن بطعمها أيتها المخلوقات النتنة فإن الألم الذي تبعثه مرارة الواقع لفي حاجة قصوى الى نفوس رفيعة سامية لتستطيع ادراكه.

"أبي ليس كالسابق"

يا للمسكينة. يا للفتاة الرقيقة الجميلة. لو علمت ما يدور في باطن أبيها هذا؟

ولكن، اني أستدرك، ماذا ترى يدور في باطني.. في عقلي؟ باطني أنا وعقلي؟

آه، اني أجهل ذلك. انني صحراء قاحلة لا يبين لعيني الكليلتين فيها إنسان، وحتى عند طرف الأفق البعيد.

ولقد أدهشني أول وهلة هذا الكذب المفاجئ الذي صببنه عليّ. ما الداعي إلى ذلك؟

ما الحاجة إليه؟؟ هل يخشين علي أم يخشين مني؟؟

هل يشفقن على أبيهن الكهل أم يدافعن عن أنفسهن أمام وحش لا يقاوم؟

آه؛ دفاع عن النفس، أصبت. هذا هو الحق الصراح، هذا هو الحق كل الحق، وإلا فما معنى تقرب الأم مني ومحاولتها فهم ما يدور بذهني؟؟ ماذا تقصد من وراء هذا التقرب غير أن تستكشف مكمن الخطر؟

٢ حزيران ١٩٤٩

مثلما تنبثق الحياة في الوليد، كيف يجري الأمر بخفة وبساطة مع كونه أجلّ وأورع الأحداث، بدأت هكذا:

كان الوقت مساء ولم تكن الشمس قد غربت بعد، وكنت جالسا في الفسحة التي تشرف على الحديقة - لا بل كنت مضطجعا على الكنبة الطويلة - أرقب السماء كيف تبين بيضاء قبل الغروب وأنا كعادتي في الأيام الأخيرة يملكني ضيق نفسي بسيط لا أعلم سببه يجعلني دائم التفكير في تفاهة حياتي وكيف أزيدها أنا الآخر تفاهة فوق تفاهة، فإذا دفعني سوء الحظ في لحظة أن أمعن النظر فيها ظهرت كما هي.. سنبلة ينخرها الدود في محيط يسع الأرض والسماء.

وكنت أعلم أن الجماعة قد خرجوا جميعا فتوزعوا حسب أعمالهم. فاطمة وساجدة إلى حيث لا أدري، والأم وصبيحة إلى حيث أدري، أعني جيراننا السيئي الطالع.

وقد أثار إعجابي في الأثام القليلة الفائتة، أني أخذت أشعر شعورا قويا بعض القوة بأني متفرج بالنسبة للعائلة؛ ولم يعد يعنيني أن أفكر هل أقوم بواجب الأب أم لا؟

لكنني كنت أحس أغلب الأحيان إحساسا غامضا أنني لم أبلغ الغاية من تفكيري أو من حياتي. هناك شيء لازال أمامي. أجل إني متيقن، ولقد بلغ هذا اليقين عندي أقصاه في دقائق معدودة قبل يومين اثنين، حتى لكأنني كدت أراه رأي العين لو لم تُقطع علي سلسلة خواطري تلك.

ومن المضحك حقا أن اهتمامي بهم وصل حدا لا أستطيع معه إن رأيتهم أن أفكر بشيء آخر أو أن أهرب بذهني عنهم إلى موضوع بعيد، فقد اصبحت ملاحظتهم العمل الوحيد الذي يمكنه أن يلذ لي حقيقة.

لذلك لم يلبث الصفاء الذي كان يراود نفسي في هذا المساء الذي أسلفت وفي تلك الجلسة المريحة، أن تبخر كالبانزين الحار حين ظهرت صبيحة أمامي وكأنها نبتت من الأرض الصلدة.

ذعرت، ولِم أكتم ذلك؟ ونظرت إليها لحظات بدهشة شديدة؛ ثم أردت أن أسألها – ألم تذهب مع والدتها؟ لكنني اعفيت نفسي من مؤونة الكلام معها.

كانت تلبس ثوبا أبيض تزينه ورود حمراء، ولعلها نقوش؛ وكان ملتصقا على جسمها بصورة شاذة بدت عجيبة دون سبب.

وقفت حيالي بشكل جعلني أعتقد أنها تريد أن تريني

جمال جسمها، فبقيت أنظر إليها من فوق لتحت مرات عديدة وأنا هادئ مرتخي الأعصاب؛ حتى بدا لي فسألتها:

- ألم تذهبي مع والدتك؟

فأجابتني وهي تدور حول نفسها:

- كلا مارأيك بثوبي؟

فلبثت ساكتا لحظات؛ وقفت هي خلالها وراحت تتطلع إلي وعلى فمها ابتسامة انتظار، فسألتها:

- جديد؟

- كلا.

فلم أجبها وأدرت عنها رأسي مبديا عدم ارتياحي ومنتظرا منها أن تبتعد عني؛ لكنها أبانت لي عن إصرار غريب تلك الساعة، إذ سرعان ما شعرت بها تجلس على الكنبة قربي لاصقة جسمها الساخن بأعلى ساقي وناظرة إلي نظرة أطارت عدم الإكتراث الذي واجهتها به.

خفق قلبي رهبة، وأحسست بعد فترة من جلوسها أنني يجب أن اعمل شيئا لأبعدها عني، أبعد هذه المخلوقة الفتاكة.

ولكن، ماذا أعمل؟؟

يخيل إلي أنني أعلم الآن، لكنني آنذاك لم أكن أفقه من معاني العالم الذي يحوطني غير معنى القلق اللذيذ

والخوف الرائع اللذين كانا يداعبان عواطفي بأيد خفيفة سحرية؛ لهذا لبثت جامدا ملجوم اللسان أحدق في عينيها الواسعتين السوداوين وأنا أتنفس بسرعة نفحات العطر التي كانت تهب منها ممزوجة برائحة العرق المثيرة وقد وقفت كل حركة في جسمي غير حركة ا لرغبة الجامحة.

كان الموقف يبدو لمن يتطلع إلينا هادئا تسوده السكينة وتخيم عليه الطمأنينة، غير أن ماكان يجري في داخلنا كان أشد هولا وأروع قسوة من أكبر الحروب وأفظع المجازر. لذلك لم يكن مستبعدا بعد أن قامت فجأة وانصرفت إلى غرفتها دون كلام أن تظهر علي أمارات الإغماء وأن أمسك صدري وكأنني أريد تمزيقه واغمض عيني كمن في لحظات نزعه الأخيرة.

إنما هي الحياة.

هكذا بوحشية يصدر الحكم؛ إنما هي الحياة، فاخرس أيها الإنسان ولا تتطاول ولو رأيت الجحيم.

كان الليل كأنه يقبض على الدنيا بيدين سوداوين فيخفي عنها وجه السماء، ولم تكن الدنيا في تلك الثواني المحرقة غير شخص منفرد كالثعبان المتجمد... هو أنا. وكنت أكاد ألمس أيادي الظلام تقبض على أنفاسي وتوشك تقطعها إربا إربا؛ فتسارعت دقات قلبي وركضت الدماء في عروقي

كالسجين الهارب وبلغ توتر أعصابي حد التمزق، فقفزت من مكاني مطلقا تنهدة كالنار وهززت رأسي كأنني أريد أن انفض عنه أفكاره السوداء ثم تنفست بعنف الهواء البارد الذي أتاني من الفردوس وارتميت على الكنبة وأنا لا أزال استنشق النسمات التي هبت آنئذ من الحديقة بخفة وسكون تحمل إلي بعض الرمق من الحياة.

كانت حالي غريبة، ولقد بقيت دقائق لا أدري هل كانت تلك الظواهر والعواطف تتلاعب في باطني أم باطن شخص آخر؟

حتى أكد لي التعب الذي بدأ يسري في أطرافي والاعياء المفاجئ الذي تملكني، أنني كنت الشخص الوحيد الذي جرى له ما علمت.

مضت مدة على ذهابها وأنا جالس لوحدي بسكون البحر والسماء، أحسست بعدها كأن لحنا باكيا حزينا ينبعث من مكان يجاورني، لعله قلبي أو لعلها دمائي، لحن يدعوني بلسانه إلى البكاء معه.. البكاء لأجل البكاء وليس لشيء آخر.. أجل لا لشيء.

ولهذا بكيت.

كانت المرة الأولى، منذ وفاة والدتي قبل سنين، التي شعرت فيها بالدموع تتجمع في أطراف عيني وتسيل منهما

بخط بارد ذي ملمس حنون، فبقيت غير مصدق تماما ما أحس به حتى مددت يدي وتلمست الدموع الجارية فارتميت برأسي إلى الوراء ورفعت عيني إلى السماء متطلعا إلى نجمة قفزت أمام ناظري فجأة، وشعرتُ أن هناك من يعزيني ويحاول أن يرفه عني.. فابتسمت بمرارة.

لبثتُ في حديث مع نفسي لا تعبر عنه الكلمات وقتا غير وجيز وأنا أسمع ضوضاء الليل الغامضة ترتفع من بعيد.. من بعيد جدا، حتى لا أكاد أصدق أنني أستطيع الإقتراب منها.

لكن خطئي كان عظيما، عظيما لا يغتفر؛ فلم يخطر لي قط أنني إن كنت عاجزا عن الاقتراب منها، فإنها لقادرة على ذلك بأسهل من قتل الإنسان. وقد اقتربت مني.. اقتربت حقا حتى لأوشكت تسحقني سحقا.

سمعت صوت صبيحة يرتفع فجأة وهي تنادي علي؛ وكان هذا الأمر.. آه.. إنه آخر ما توقعت، ولكن من يصدقني؟؟

لا أحد. إني أعلم ذلك، غير أن هذا لن يمنعني أن أكتب ما أريد وليقولوا "لقد كان دنيئا شريرا" فهل يبدل قولهم فيما جرى شيئا؟؟

"ماجرى!" هه.. لكأنني أقص إحدى مغامرات فرسان

القرن السابع عشر السخفاء.

أجل، إنهم سخفاء حقا وان اعتقدوا بأنفسهم البطولة والألوهية؛ بل إنهم كانوا سخفاء على أتم صورة ورقعاء على أبدع ما تكون الرقاعة حين اعتقدوا هذا الاعتقاد.. هذا الاعتقاد بالذات.

لماذا عاش أولئك الأنجاس؟؟

والاغرب من كل غريب أنهم كانوا يرون أنفسهم أبطالا!

هؤلاء التعساء، لقد جهلوا الحياة؛ فما أقل وما أندر الأبطال في هذا العالم!

أنا مثلا، كنت أتصور نفسي وأنا جالس لوحدي، أنني إن لم أكن بطلا فأنا منه بمقدار ضئيل. أهواء صبيانية.

ولكن لماذا؟؟ ولِمَ اعتقدت في نفسي البطولة.. هذا الاعتقاد الأجوف؟؟

نعم، إن ذلك كان لأني لم أجبها إلا في ندائها الثالث؛ ولقد أجبتها، أيها الناس جميعا، لأنني لم أحتمل النغمة المثيرة المغرية الأنثوية التي كانت تتداخل في ثنايا صوتها فتحرك مني وترا يكاد لدقته وحساسيته يتقطع.

ذهبت إليها في غرفة كنت أذكر أن فيها مرآة وما أشبه، كن يستعملنها أثناء لبس ثيابهن، وكنت مضطرب الأنفاس.

ولا أزال أذكر جيدا أنني لم أكن مترددا مطلقا؛ لم يساورني التردد حتى حين فتحت الباب فوجدتها خالعة ثوبها وباقية في "أتك" أبيض قصير لا يخفي من جسمها ما يجعل الملاك شيطانا.

سألتها، أجل بصوت مرتجف، ماذا تريد؟

فقالت دون أن تلتفت إلي ما معناه، أو ما فهمت منه، أنها تريد أن أفك لها عقدة الحمالة.

لم استغرب، وإن وجب أن يكون ذلك، ولم استوضح منها لِم لم تقم هي بهذا العمل، وتقدمت بخطوات عادية نحوها.

لو قطعنا هذه الوصلة من شريط الحياة، لنفرض أننا نستطيع ذلك، وعرضناها على أشخاص من مختلف الأعمار لما تناقش إثنان في كنه العمل الذي كان يبدو أني سأقوم به.. إننا جميعا نعلم.. أننا حيوانات.

كان وجهي محتقنا، ولقد شعرت به حارا ملتهبا، وكنت أصر بأسناني على بعضها كأنني أريد أن أمزق هذه المخلوقة بينها، ولم أكن مالكا زمام نفسي قط.

أمسكت بها من أعالي ذراعيها العاريين بكلتا يدي؛ وكانت حرارتهما، حرارة الشباب، تبعث في الدماء جنونا قاتلا. أدارت رأسها بتردد نحوي، فبدا خدها الأسمر ناعما صقيلا وظهرت شفتاها حمراوين كالدم المراق وقد

رطبتهما برضابها فالتمعتا، وتهدل شعرها الأسود الكثيف فمس وجهي لمسات رفيقة وتراءى لي ارتفاعا نهديها الفتيين من بين فتحة الثوب الرقيق، وكان يبدو أن مصيري محتم.

أحنيت رأسي بهدوء مقربا فمي من نهاية رقبتها فتصاعدت إلى أنفي رائحة طيبة ارجفتني، ورأيتها تطبق جفنيها بسكون فوضعت شفتي على لحم رقبتها.

"لا.." صوت أجش خلته يفجر هذه الكلمة قرب أذني. لا، قف، حذار، إياك، كل شيء كان يصرخ - قف، حذار، إياك، كل شيء كان يصرخ.. ويصرخ.. ويصرخ - لا.. إياك.. لا.. لا، حتى شعرت بذارعيَّ المرتجفتين كالسعفة يضغطان ذراعيها العاريين بقوة وعنف وقسوة فتكاد أصابعي تترك أثرا لا يمحي على لحمها الأسمر القذر؛ ثم شعرت برأسي يرتمي إلى الوراء فجأة بحركة مخيفة كأن هناك من يجذبني من شعري بأقصى قوته؛ ورأيتني بعد ذلك أدفعها عني بقوة شيطانية عجيبة فتقع على المرآة أمامها وتكسرها فتحدث صوتا مريعا رنَّ في أذني رنين السكين تضرب قحف الرأس فتشقه شقين، فأرفع راحتيَّ أسدُّ بهما فوهتيَّ عينيَّ الجاحظتين محاولا إيقاف الدوي العظيم القاسي الذي أمسكني على حين غرة فأحالني

حيوانا دونه أشد حيوانات الغابة فتكا وضراوة.

كان دويا هائلا، أزاد من هوله طرقات تشبه دقات طبول كبيرة تختلط معه صرخات ثاقبة مبحوحة؛ خشنة حينا رفيعة تشق الأذن حينا آخر؛ وكنت أحس كأني أطفو على سطح الأرض وأسير عليها كما تتزحلق السكين على الزبد؛ يملأ سمعي سؤال غامض يهمس به صوت مشوه النغمات صادر من أعماق عميقة لا قرار لها – لِمَ لا أنام؟ أريد أن أنام، يجب أن أنام.. يجب أن أنام. ثم أخذت تظهر لي أضواء صفراء تعمي العين وأخرى حمراء كالدم المخفف، وكانت تمر أمام بصري بسرعة قلقة، فتتحرك من الأعلى إلى الأسفل، ومن الأسفل إلى الأعلى حتى تختفي فجأة دون أن أعلم السر في ذلك.

كنت أحلم، لابد أني كنت أحلم، في كابوس مريع؛ وكنت أشعر بالحر الفظيع يبلل جسمي بعرق دافئ لزج فأمر بيدي على جبيني فألفاه باردا متثلجا فتخيفني برودته، ويعود النداء المنبعث من الأعماق يتجاوب صداه في رأسي:

"لِم لا أنام؟ لِم لا أنام؟ لِم لا أنام؟"

ثم سكن كل شيء.

وقفت كل حركة وهدأت كل نأمة، وما عدت أسمع صوتا.

لاشيء سوى السكون، سكون الموت، سكون الكون،

سكون الله. وكنت وجلا مرتعبا مذعورا.

غير أن فترة السكون هذه لم تستمر إلا لحظة، إلا ثانية وسمعت صوتا نسائيا يسألني بسخرية:

- أسكران أنت؟

فوضح لي الأمر باسرع من لمعة البرق، وفهمت في دقائق، بعد أن فتحت عيني وعدت أستطيع الرؤية، موقفي الدقيق الذي لم أجد له وصفا حتى الآن.

أين كنت؟ وكيف أتيت؟ ومن قادني؟

ولعلي سأجد أسئلة أخرى لا تنتهي لو فكرت قليلا وأعملت ذهني؛ إنما المهم حقا هو أين أكون؟ ومن يسألني مثل هذا السؤال الغريب؟

كنتُ، لهف نفسي على الضحكة التي ستطلقها ياصديقي العزيز، كنت في بيت قحاب، وكانت إحداهن بألوانها وزخرفها وتجعدات وجهها السوداء هي التي تسألني باستغراب وهزء عن سكري الذي لم تجد له رائحة في فمي اليابس.

نظرت إليها بذهول؛ وبقيت، مع فهمي حقيقة موقفي، لا أستطيع التكلم معها وسؤالها عمن دفع بي إلى هذا الجحر المظلم؛ فلم تستسغ ذلك مني وعادت تسألني- مابك؟ أتشعر بشيء؟ أتريد الدخول معي؟؟

فأشرت إليها أن تسكت بإشارة لطيفة، ثم مشيت إلى سرير قربي فارتميت عليه وطلبتُ منها أن تقترب مني، فاستعادت حالتها الطبيعية بعد أن رأت تلك الحركة التي تذكرها بكل ماضيها.. ماضي النساء كلهن؛ واقتربت بتثاقل وهي تبتسم.

لم يكن لي بسهولة أن أقدر عمرها، غير أن وجهها وما شُق فيه من خطوط وتجاعيد كان يدل على سنين غير قليلة انصرمت من عمر تلك المرأة.

كانت عيناها متعبتين عميقتين كالبئر المظلم، وفمها مطبقا بمرارة وحقد حتى حين يفتر عن ابتسامة؛ وكان جسدها نحيلا أسمر باليا كالعربة العتيقة، وقد بعثت فيَّ أجزاؤه الظاهرة من وراء ثوبها القصير شعورا رائعا بالشفقة والعطف.

سألتها بعد برهة من جلوسنا عن اسمها ومن أين أتت؟

أجابتني باختصار ولم تحاول أن تتقرب مني أكثر فارتحت إلى ذلك منها وشعرت برغبة في التحدث فعدت أسألها هل تشعر بتعب؟

أغمضت عينيها لحظة بصورة اعياء فظيع وأجابتني بصوت خشن:

– كلا. لِم تسأل؟؟

– هكذا. الناس كلهم متعبون فلعلك أنتِ أيضا مثلهم.

فقالت ولمعة عينيها جنونية:

– وما علاقة الناس بي؟

فوقعت كلماتها موقعا مؤلما من نفسي، وأحسست بحزن مفاجئ قوي يعصر فؤادي إثر سماعها أمسكت بيدها وكانت باردة مبللة، فاستجابت للمستي وقربت جسمها مني، فلم أشجعها على ذلك وقلت لها بصوت مرتجف.. مرتجف حقا:

– أأنتِ وحيدة؟؟

فظهرت الملل عليها بغتة وقالت بشدة وشراسة:

– كلا؛ ألا ترى كم في الدار من البنات؟ أنظر، هل تريد أن تدخل معي؟

فهززت رأسي.

كانت جملتها هذه قادرة على أن تضرب الضربة القاضية، فأحسست بدوار بسيط يداخلني فيجعل الغرفة تدور تحت بصري؛ ولم يلبث حتى صفا كل شيء أمام ناظري صفاءً رائقا لا يشبهه أي صفاء، صفاء، الحقيقة.. صفاء الوجود.

كانت جلستي مع هذه المخلوقة كافية لقطع الشعرة الرقيقة التي كانت تربطني بالعالم.

مكثت فترة أتطلع إليها راثيا محتقرا ثم عرفت فجأة أنني أأبى الاتصال بهذه المرأة، فقمت من السرير وأخرجت نقودا اعطيتها لها ثم وجدت طريقي إلى الخارج مسرعا.. مندفعا.

لم يكن الليل شديد الحلكة حين خرجت، لكن السماء بدت عندما رفعت بصري إليها عالية بعيدة مظلمة، لا تنيرها النجوم ولا يظهر عليها بأية صورة أن أحدا يسكنها أو يطل منها علينا، فأسرعت لا ألوي على شيء، أضرب الأرض بقدمي وأكاد أحفرها.

بقيت أسير على غير هدى، لا أدري كم قطعت من شوارع وطرق وأزقة، وفي كل مكان كنت أجد الناس كثارا يملأون الجو بشكل بشع فظيع لا يطاق؛ حتى لقيت نفسي وحيدا في مكان مظلم ساكن تحوطه الحدائق وتحفه الأشجار السامقة، فتذكرت السماء مرة أخرى ورفعت نظري إليها ثم ضحكت بسخرية.. وضحكت بألم.. وضحكت بيأس.

فراغ يحكم فراغا!

إني أعلم، لم يشعر بمثل ما شعرت آنذاك انسان قط.

أيها الآلة الموهوم، إني قريب منك في القداسة والوهم؛

أيها العالم البعيد، إنك لم تعد لي عالما أسكنه، إني لا أشبه شيئا فيك، لا أشبه شيئا البتة؛ إنني فريد في جوهري لأنني ضيعت كل شيء ولأنني انفصلت عنك إلى غير رجعة.

٩ آب ١٩٤٩

من قال إنا نعيش بأمان وحتى بين أقرب الناس إلينا؟؟

كلنا عوالم في حروب، عوالم لها مسالك هجوم ولها مواقع دفاع. ففي حركة هدب سريعة أو في لهجة جملة عابرة، يمكنك أن تفضح إنهزاما غير متوقع أو استعدادا لهجوم مجتاح.

لكنها، وآاسفاه، حروب غير منظمة، لا بل هي حروب صدف وقضاء وقدر. الكثيرون لا يعلمون عما يدافعون ولا يدرون لأي شيء يهجمون. ومع ذلك تراهم يدافعون ويهجمون على الدوام وباستمرار. ولو علمنا، لو علم أي انسان، مانخفي في أنفسنا وندفع عنه لأمسك سر الحياة بين أنامله. أما أن نفكر في السعادة ونحن في جو ودنيا مثل هذه التي ذكرت، فإن ذلك يبدو من السخف وفراغ العقل.

وإننا، لحسن الحظ، لو فقدنا عواطفنا المضطربة وبعض الأفكار الجميلة والذكريات الجوفاء الرائعة التي تحيط بحياتنا فتعزلها عن العالم الذي رُمينا فيه، لكان لنا في الأرض الجرداء هذه جحيم الشياطين الذي تهددنا الآلهة الجبانة به دائما.

أما لي، أنا الذي أوشكت أن اكشف عن سر كياني، ففي

الحق ماذا يجدي أن أفكر بعمق في كنه الآلهة أو حقيقة الحياة أو طريق الصواب أو سبيل السعادة، إن لم تستطع هذه جيمعا أن تدعني أبصق في وجه الحياة متى ما مست نواة وجودي؟؟

أليس كذلك؟؟

حسنا، لا تظنوا أني أنتظر جوابا؛ فلي من سوء ظني بكم ما يجعلني أعلم علما أكيدا بأنني الوحيد الذي يملك مثل هذه القدرة على التفكير بهذا الشكل.

أجل، إنني متيقن بأني الشخص الوحيد الذي حاول أن يجرد مواضيع حياته مما لصق بها من آراء قديمة ونظرات عتيقة واعتبارات نخرها تراب الأيام، وإني الشخص الوحيد الذي أراد أن يضع نظرته في الحياة فوق كل النظرات وفوق كل التقاليد وفوق جميع الكائنات، وإني الشخص الوحيد الذي احترم نفسه وجرب أن يطبق قيمة الخاصة على حياته.

أما نتيجة كل ما حاولت وأردت وجربت فلم أعرفها حتى هذه اللحظة، ولعلي لن أعرفها أبدا أو لعلي سأعرفها بعد دقائق، والأمر في الحالين سواء، فليس لهذه النتيجة من الأهمية مقدار كبير أو صغير، لأن قيمة محاولاتي الوحيدة هي في أن تكون وأن تُخلق.. لا غير.

فإذا أدى تخبط الحياة بها إلى أن ترى في المخلوق الذي يجب أن يقع على كاهله عبء ما طبقت من آراء ونظرات، فليس لدي ما أقوله سوى كلمة واحدة – سخف.

ويدور بخلدي الآن إنها ليست الحياة التي تتخبط، الحياة التي لا تعرف آلهة ولا أجدادا، ولكنها المجتمعات الإنسانية والأجيال البشرية. ذلك أن الحياة أصح نظرة وأصرح قولا من أن تجد فيً إنسانا يجب عليه دون سبب تحمل النتائج؛ فأنا خادمها المخلص الفريد الذي بنى قيمه في الحياة على الحياة نفسها.

ماذا دار بذهن الأهل الأعزاء، لنترك قليلا مجال الآراء، بعد اذ تشكفت لهم عن شخصية جديدة ظريفة محبوبة خلال هذه الأشهر الماضية؟؟

لا أعلم تمام العلم، لكنني لا أخالهم غير مندهشين.

فالأم التليدة، التليدة حقا، بعد إذ أخذت ترى كثرة خروجي مع فاطمة وساجدة وإفراطي في تدليلهم والسهر معهم ومعابثتهم كل الوقت ومعاملتي لهم كأنني صديق شاب، بدأت تقلق وتوسوس لها نفسها بشتى الأفكار المريعة السوداء. فلما لم تر دليلا يؤيد قلقها ووسواسها وشاهدت بأم عينيها أنني صادق في عبثي وضحكي وسروري، أنقلب خوفها نوعا من التفكهة والإسخفاف

والازدراء، وصارت تلذعني كلما سنحت لها الفرصة بما تستطيع من أنواع الكلم السخيفة والنكات الفطيرة حقا. فكنت آخذ ذلك منها على علاته وأجابهها باهمال وعدم مبالاة لم تحلم بهما قط؛ حتى أدى بها كل ذلك إلى شعور عجيب من الكراهية والحنق لنزهاتي معهم وخروجي وإياهم إلى سهرات كانت تدوم أغلب الأحيان إلى منتصف الليل ونحن، في هذا، مملؤون سعادة ولذة وانسا.

وبعد أن كانت قبلا تحاول جهدها أن تتستر على مجيء فاطمة واختها في أواخر الليل، بدأت تنتظر مجيئنا على أحر من الجمر، لا لتتستر أو تخفي أمرنا، بل لتقابلنا بنوع مضحك من السباب والكلمات النابية والشتائم وهي تشير من طرف خفي إلى خروجي معهما وما قد يتقول به الجيران عن ذلك، وما يحمل هذا الاهتمام بالبنات من معنى لا تفهمه ولا يمكن أن تسيغه.. الخ.. الخ.

ومع ذلك، فلم يخطر في بالي مطلقا أن أحاول تبديل نظرتي أو فكرتي في موضوع فاطمة والخروج معها هنالك نواة، هي التي تجتمع حولها كل حياتنا منذ تكوننا أجنة حتى لفظنا النفس الأخير.. وتلك هي اللذة.

ولقد توصلت إلى هذه النتيجة بطريق غاية في البساطة؛ فقد سألت نفسي وأنا جالس يوما في مقهى فتاح وأمامي

سيل زاخر من البشر.. سيل لا ينقطع ولا يخمد ولا تخف حدته لحظة، سألت نفسي ما سبب وجود كل هؤلاء؟؟

ولم أتردد برهة؛ إنهم نتيجة عملية واحدة، عملية الاتصال بين المرأة والرجل.

فكلنا نتائج إذن، والوجود كله يبدو نتيجة وغاية وليس له طريق يسلكها إلى شيء آخر بعيد كما يُتصور.

حسنا، ثم سألت نفسي، ما الدافع إلى كل ذلك؟؟

ما الذي يدفع الرجل والمرأة إلى تكرار هذه العملية دون ملل أو ضجر؟؟

اللذة.

لا شيء آخر أبدا.

فالحياة إذن ذات أساس مكين من اللذة الجنسية التي يجدها الطرفان في اتصالهما؛ وكل اللذات بعد ذلك مضاعفات أو مجزئات لهذه اللذة الرائعة.

كانت هذه النتيجة التي وصلتها غريبة بعض الغرابة وليست مألوفة إلي من قبل، فبدأت أمعن النظر فيها وأجمع أدلة أخرى تؤيدها وتقوي من بنيانها.

ليس لنا بعد هذا إذن أن نلوم رجالا أفنوا حياتهم في سبيل المرأة؛ لأنهم لابد أن يكونوا قد أدركوا، حتى ولو بصورة مبهمة، أن هدف حياتهم، كلا أعني لبابها،

وبصورة مضبوطة أكثر أن نجد الحياة ونلمسها.. أي أن نحيا؛ أقول لابد أنهم أدركوا أن فعل الحياة إنما هو كلمة مرادفة للذة الجنسية، أعني الجماع.

ولم أحاول طبعا أن أفكر هل أن هذه الفكرة ذات صبغة واقعية؛ فقد خطر لي فجأة أن الغالبية الساحقة من البشر لا يحيون كل حياتهم، بل أنهم يتركونها تنفلت من بين أصابعهم كالرمل الناعم، فلا يحظون إلا بجزء يسير.. يسير جدا منها.

غير أن سوء الحظ حقا هو الذي أدى بعد ذلك أن يكوّن هؤلاء الأكثرية الأغبياء، جميع المجتمعات البشرية التي يعرفها التاريخ، فيفرضون عليها قيمهم المتفسخة في الحياة والدين والاجتماع ويحطمون من يحاول الخروج عنها تحطيما تاما لا رحمة فيه ولا شفقة لأنهم يعلمون أن في الرحمة هذه والشفقة موتهم الاكيد وفناءهم المحقق.

هكذا، وإذا أردت أن أسير أكثر قلت لنفسي، فيجب أن ننظر إلى تقاليدنا وعاداتنا الموروثة والقديمة منها خاصة، نظرة جديدة نزنها بها بميزان الحق الخالص، فنرمي منها ما يناقض مبدأ الحياة ونتشبث بما يؤيده ويدعو إليه منها؛ حتى لو أدت بنا هذه النظرة الجديدة إلى أن نسحق كل التقاليد والعادات ونحطم كافة الأديان والمعتقدات، فلا

يجب أن نتردد لحظة من الزمن.

فكل البشر سواسية، سواء أكانوا أجدادنا أم لم يكونوا كذلك؛ وهم يفرضون علينا آراءهم العتيقة المنبعثة أكثر الأحيان من نفوس ضعيفة واهنة، دون أن يسندهم في ذلك منطق سديد أو عقل راجح، فقوتهم الوحيدة هي أنهم كانوا آباءنا!

ويالها من قوة نمنحها لهم دون سبب.

آه، ولله ما أجمل ذلك الإحساس بالانطلاق الذي شعرت به يسري في دمائي بعد إذ انتهيت من طرد آبائي وأجدادي من حظيرة نفسي التي سكنوها سنوات طوالا عزيزة. كان شعورا سحريا منعشا إلى أقصى درجات الانعاش، جعلني أنتبه على حين غرة إلى روعة المكان الذي كنت فيه وإلى ما كان يظهر تحت بصري من الأضواء وحركات السيارات والبشر.

كل شيء غريب يثير الفضول، لذة الفضول، الأنوار.. البنايات.. هذه المخلوقات الأليفة.. تلك الأشياء التي تحيطنا، الأشجار.. كراسي المقهى الغبراء.. وجوه الجالسين.. دخان سجائرهم الأبيض، آه.. كل شيء يدعو إلى اجتلاء حقيقته العارية الجميلة ولم يفارقني هذا الشعور بعد ذلك أبدا؛ وصار رويدا رويدا يطبع حياتي

بطابعه المدهش المسلي فيظهرني لمعارفي شخصا غامضا تقوده أفكار جريئة حرة تخيف، ويظهر معارفي لي بثياب طريفة كانت تفرحني حقا وتشكف لي عن لذات رائعة لم أكن أجدها فيهم.

وكان أول شخص اهتممت به اهتماما خاصا ووجدته كالجوهرة المخفية في الرماد.. هو فاطمة هذه المخلوقة اللطيفة البديعة، هذه الفتاة العابثة اللعوب، هي الحياة بكل معانيها وهي اللذة بأدق صورها وأجملها.

كيف خطر لي أن أكرهها يوما وأن اناصبها العداء؟؟

أي سخف كان ذلك وأي خضوع أعمى لأجداد مجانين!

توددت إليها فقابلتني بشك وعدم تصديق ضئيل، وعابثتها فابتسمت وضحكت ضحكة طروبة، فدعوتها إلى السينما معي فارتمت علي تقبلني فرحة جذلى كالشمس المشرقة.

ياللفتاة!

كان ذلك مساء ١٠ حزيران أو ١١ منه، أي بعد حادثة صبيحة بثمانية أيام أو تسعة، وكنت آنذاك مخلوقا جديدا تمام الجدة، فأمكنني لهذا السبب أن أتمتع بذلك المساء الجميل تمتعا كاملا عظيما.

كانت ساجدة معنا؛ ولقد ظهرت لي معجزة لسانها

العجيب ونحن لم نصل بعد إلى السينما. فلم يصادف قط أن تركت شخصا يمر قربنا أو على مبعدة منا إلا ولذعته بكلمة قارصة أو وصفته وصفا يضفي عليه لباسا مضحكا، فكنا نقهقه بكل حرية وعدم اكتراث ونمضي في سبيلنا كأسعد الأصدقاء.

غير أني لم أكن خاليا من كل هم وانزعاج. كنت ألحظ بين وقت وآخر النظرات الخفية التي تتبادلها الأختان إثر رؤيتهما بعض الشبان المتأنقين، فأحاول أن أغضي الطرف عنهما، لكنها كانت تترك أثرا يلبث يحزنني ويعصر فؤادي وقتا طويلا.

ولم تكن فاطمة قد تزينت أو وضعت شيئا من الدهون في وجهها، فكانت بشرتها السمراء الشاحبة وعيناها الصفراوان الفاقعتا الصفرة وشعرها الأسود الحالك وملامحها الدقيقة الرائعة، تلفت أنظار المارة إلينا بصورة لم أرتح إليها كثيرا.

ماكنه القوة التي تكمن في هذا الوجه، هذا الوجه البريء؟؟

تملكني ضيق من التفكير في هذا الأمر، فاطمة وقوتها، فانكفأت بعد صمت طويل كاد يقضي على سهرتنا، ورحت أحدثهن وأغريهن بالحديث معي والتفكه على حساب من

نعرف من الناس ومن لا نعرف وقد تناسيت كل شيء إلا أنني بصحبة فتاة جميلة فائقة الجمال.

جلست في السينما تتوسطنا. كان الحر شديدا بعض الشدة فاخرجت منديلا تمسح به وجهها فانبعثت منه رائحة عطرية ذات شذى لا ينسى فاحسست بارتياح لذيذ يداخلني وبدأت لأول مرة أجد نشوة لطيفة في ملامسة كتفها الناعم لكتفي.

كنا نتحدث حديثا متصلا، لكنها كانت تتجنب أن تكلمني كلاما طويلا. كانت توجه أسئلتها إلى ساجدة وكذلك ضحكاتها الحلوة الرقيقة؛ فعلمت من ذلك أنها لا تزال تشعر شعور الأثم القديم وأنها لم تستطع أن تتخلص منه حتى الآن.

رجعنا إلى البيت حوالي منتصف الليل؛ وكانت لي في رجوعنا لحظة فريدة بعثت في الدوار، دوار اللذة، أوقات عديدة بعد ذلك.

كانت عودتنا في باص أمانة، وقد صادف أن جلست فاطمة جنبي في كرسي أمامي بينما امتلأت الكراسي الأخرى بركاب جلهم شبان ذوو أناقة ظاهرة في الملبس.

كنت في الحقيقة قد انتهيت ونحن في الباص إلى أن أولئك الشبان لا يرمقون فاطمة إلا بنظرات خاطفة طائرة لا تكاد

تقف عند وجهها، لكنني لم أعط انتباهي قيمة تذكر؛ حتى نزلنا في باب المعظم وبدأنا نسير قاصدين البيت الذي يقع على مبعدة، حين قالت ساجدة:

– هل رأيتم اولئك الشبان الذين ركبوا معنا؟؟

فالتفتنا إليها متسائلين فاردفت:

– لكأنهم كانوا يخشون أبي، فلا ينظرون إلى فاطمة إلا خفية عندما يلتفت إلى ناحية أخرى.

فضحكنا بهدوء برهة هتفت بعدها فاطمة تقول بصوت لين وبلهجة عابثة:

– من يدري، لعلهم حسبوني زوجته.

كان الهواء يهب باردا يحمل رائحة خاصة من الحدائق المجاورة، وكانت الأضواء الكهربائية تلمع من بعيد فتحملنا على الظن بأننا في عالم آخر، وكان السكون يلفنا لا يقطعه بين هنيهة وأخرى غير صوت بوق لسيارة قاصية، وكانت ضحكة ساجدة قد تلاشت ولم يبق منها غير تنهدات مبهمة؛ فاستنشقت الهواء الساحر بهدوء غير أن قلبي كان خافقا، ورفعت بصري إلى السماء، أجل، إلى السماء فلم أر شيئا إلا الظلام الدامس البهيم.. الظلام البهيم دائما.

أنزلت بصري بخيبة أمل شديدة، منصتا إلى موجات

نفسي الثائرة الحبيسة.. منصتا إلى صدى يرن في داخلي، صدى لصوت سماوي يبعث الحياة، وشعرت أني يجب أن أقول:

آه، أيتها السعادة؛ مَنْ لي بكِ؟

لم أنم تلك الليلة. ظللت في فراشي البارد مضطجعا أرقب السماء والقمر الشاحب عند الأفق والنجوم الصغيرة، ولا شئ يمر في فكري سوى تلك الكلمات التي لا يمكنني أن أجد وصفا لها، تمر في فكري مجردة عارية بغير نقش أو زخرف أو إطار لأن فيها هي وحدها كل نقش وكل زخرف وكل إطار.

"من يدري لعلهم حسبوني زوجته"!

آه. من يدري، لعلهم حسبوني زوجته؟

من يمنعني لو كتبت هذه الجملة عشرات المرات.. بل مئات.. كما مرت في ذهني المتعب طوال تلك الليلة التي قضيتها سهران حتى الصباح؟؟

ولكن لماذا؟؟

أجل لماذا والله؟؟

مافائدة كل ما أعمل من كتابة إلى تذكر وتخيل وحسرات؟؟

ماذا كان يحمل استيقاظي الليل أجمعه؟؟

مامعنى نزولي عند الفجر إلى غرفتي وكتابتي على ورقة كبيرة تلك الجملة ا لفريدة –

"من يدري، لعلهم حسبوني زوجته"!؟؟

أجل، يجب أن أعلم كل أجوبة هذه الأسئلة، يجب أن أعلم وإلا فلأسحقن نفسي كما تسحق الحشرة الحقيرة الدنية.

ولأيام مرت بعد ذلك، كان يبدو علي كما أخبروني، القلق والانزعاج بصورة جلية قوية جعلتني معظم ساعات النهار ساهيا عن نفسي ضاربا في عوالم غريبة لا تصلها إلا نفوس فقدت كل إيمان واعتقاد وكانت تمر على ذهني بإلحاح، حادثة ماضية كنت حققت فيها عندما كنت مأمور مركز في إحدى نواحي أربيل. كان المتهم شيخا جاوز الخمسين ذا لحية طويلة تتدلى على صدره وجسم قوي مفتول العضل؛ وكان قد سيق إلى المركز بعد شروعه بقتل زوج إبنته، حين حاول هذا الأخير منع الشيخ المذكور من معاشرة ابنته أي زوج المجني عليه.

لم يكن في الحادثة أمر غير مألوف بالنسبة إلي. بدأت التحقيق فأمكن إثبات الشروع، غير أني عجزت بعد ذلك عن إثبات علاقة الشيخ المتهم بابنته، تلك العلاقة التي كان يدعي وجودها المجنى عليه والتي ملأ رؤوسنا صياحا

وهذرا عنها.

حاولت أن أستخلص إعترافا من الشيخ فلم يمكنني ذلك قط، إذ لبث في كل ساعات الاستجواب جامدا جمود الحيوان لا يظهر عليه أي اهتمام بنا وبأسئلتنا الموجهة إليه. أما ابنته وكانت في حوالي الثامنة عشرة بيضاء زرقاء العينين، فقد أصرت على أنها لا تعلم شيئا.

وإلى هذا الحد لم أكن متضايقا؛ إلا أن إلحاحي على الشيخ، حتى بوسائل غير مشروعة، وسكوته المتعمد أثار أعصابي وأخرجني عن طوري. فخطر لي بعد إذ علمت من جيرانه حبه العظيم لابنته، أن أواجهه بها عل ذلك يؤثر فيه بعض التأثير.

أنا أعلم أن هذه الحادثة صعبة التصديق، لكن أبعد الأشياء عن التصديق فيها كان ذلك التهدم الفجائي والإنهيار غير المتوقع الذي بدا على الشيخ حين أول رؤيته لابنته الجميلة بعد فراق أسابيع ثلاثة.

أين ذهبت تلك القوة الرائعة التي ظل متمسكا بها عشرين يوما؟؟

ما هذا التأثير السحري لهذه الفتاة اللطيفة الصغيرة على ذلك العملاق العجيب؟؟

لم يلبث بعد أن رآها بيننا حائرة شاحبة الوجه أن بكى

بكاء مرا مغطيا وجهه بكلتا يديه معترفا بكل العلاقة التي كانت بينه وبين ابنته.

لم يملكني التأثر ذلك الوقت، وأحسست بشماتة وبلذة الانتصار على كبرياء هذا الشيخ المجرم. لكنني الآن، في الأيام التي أعقبت سهرتنا والتي قضيتها قلقا منزعجا، كنت أتذكر القصة، قصة الشيخ وصورته القوية، فيستولي علي الحزن والكآبة وتفيض أحيانا دموع حارة صادقة من عيني؛ فقد صرت أرى فيها معنى خفيا غاب عني أيام التحقيق، معنى من معاني الإنسانية الحقة التي يصعب على بشر أسوياء يؤمنون بالأجداد فقط أن يفهموه ويسبروا غوره.

ولم تنقض أيام بعد ذلك حتى عدت إلي الدنيا حاملا بين طيات جوانحي المظلمة العميقة مثلا عاليا من أمثلة الإنسانية وبطلا لن تدركه الأجيال قط.. لن تدركه.

وهكذا سرت. ولكن، إلى أين؟؟

على غير هدى، إلى غير محل.

على غير هدى؟؟ نعم، أحسب أن هذا هو الوصف الصحيح الظاهر لحياتي بعد تلك الأيام.

لم يعد يشغلني غير نزهات تينك الفتاتين، فاطمة وساجدة، وغير سهراتهما وحفلاتهما ومواعيد هما.

لم تألفا إلي بداية الأمر، وصار وجودي بنيهما يضايقهما ويبعث فيهما الملل والضيق؛ لم يكن بمقدورهما.. لم يعد بمقدورهما أن ترتبطا بالمواعيد السابقة التي اعتادتا عليها منذ سنوات. سألتهما ببساطة متناهية أن يعرفاني باصدقائهما، فاستغربتا كلامي جد الاستغراب ونظرت إحداهما إلى الأخرى ثم سألتاني ببراءة وسذاجة - أي أصدقاء أقصد، إذ أنهما لا تعرفان أحدا؟

فضحكت، قهقهت بصوت مرتفع.. مرتفع؛ وكنت سعيدا معهما.

وبعد ليلتين كنت، المغفرة، كنا مدعوين إلى حفلة سمك" مسكوف "في الجزرة مع بعض الأصدقاء والخلان. وكانت في الحق سهرة ممتعة جد الامتاع، شربنا فيها وأكلنا وملأنا صدورنا هواء باردا لذيذ وسبحنا تحت ضوء القمر وجذفنا في قارب أبيض رشيق، وعملنا بسرور كل ما نستطيع حتى ساعة متأخرة من الليل، أو بالأحرى هل أقول من الصباح؟؟

وكنت أقوم بدور الخال المغفل خير قيام وأجمله وأدعاه إلى الضحك خاصة من "المادموازيل" فاطمة.

نعم، لقد ظهر أخيرا أنها ماموازيل أيضا!

وماذا كنت أريد بعد ذلك، وخيرا من ذلك؟؟

فاطمة صديقتي، تحادثني وتسر إلي ما يدور في خلدها وما تكنه في صدرها؛ هذا الشاب المتظاهر بالغنى وما هو كذلك، يريد منها كل شيء بسرعة، ذلك الطاووس المتبهرج يزعجها بنكاته البذيئة التي يحفظها خصيصا عن ظهر قلب ويسعى إليها جهده، أولئك الشقيقان الثريان.. إنهما سافلان!

وساجدة صديقتي كذلك. نكاتها اللطيفة اللاذعة تخصني بها، لومها لفاطمة على بعض التصرفات تفضي به إلي أولا، أحتياجها إلى النقود والثياب لا يعلمه أحد غيري.

وإذا كنت صديقا لفاطمة وساجدة في بيت كبيتنا فاضمن لنفسك كل راحة ونزهة وخلو بال. ولقد ارتحت، ولقد تنزهت، لكن بالي لم يخل قط.

هذه الأعمال كلها؛ خروج ودخول وسهر ليال والثرثرة مع سخفاء متأنقين، وهذه الحياة التي دخلتها فجأة وعلى غير انتظار؛ مناظر مغرية، وجوه جميلة، كلمات غزل خافتة تطرق أذني فأتركها تمر مع الهواء، أوصاف مخزية تلصق بي، نظرات شزر تُلقي علي؛ هذه الحياة وبضمنها أعمالي التي تناولتها واحتضنتها بشغف ومحبة، هل تهمني كلها؟؟

كلا، أقولها بدمائي.

هل أعير أنا في الحقيقة أحدا أنتباهي؟؟

كلا بالتأكيد.

هناك شيء إذن، ويجب أن يكون. هناك شخص إذن.. وقد كان.

لم تكن بغيتي بعيدة، ولم تكن في أغوار عقلي الباطن؛ لأني ما فتشت عنها برهة من الزمن حتى وجدتها، ولقد كنت متوقعا أن تكون كما وجدتها.. مريعة جذابة، مخيفة فاتنة، فظيعة رائعة كانت هي.

أجل، هي فاطمة، تلك البنية التي تعرفونها جيدا.

لو كان قد بقي لي مجال، حتى أضيق من ثقب الإبرة لالتجأت إليه وأخفيت نفسي عن الحقيقة. ولكن، لم يكن هناك مفر؛ ولقد اخترت طريقي أخيرا وليحدث ما يحدث بعد ذلك.

ماذا سيحدث؟

٣ أيلول ١٩٤٩

قاسية هذه الحياة، قاسية هذه الرغبة، ولئن تذوق المر العلقم أحلى من أن تواجه أشياء سخيفة ركيكة أقوى منك.

حاولت معها جهدي. سلكت بها كل الطرق فلم أستطع أن أفهمها، أن أجعلها تنظر إلى الوجود بعمق.

وماذا كانت نتيجة أعمالي؟؟

بدأت تفزع من رؤيتي، تفزع من وجهي فزعها من شيطان رجيم.

ومع هذا فكثيرا ما أنصتت إلي وكثيرا ما ضعفت، كلا بل كثيرا ما قويت، حتى كادت.. آه، حتى كادت تصير مثلي، إنسانة جديدة.

ولكنها جبانة.. جبانة.. جبانة.

١٠ أيلول ١٩٤٩

القمر شاحب كوجه الميت وشعاعه كالكفن الأصفر.

الجميع نيام، وهم أيضا كالأموات، الهواء بارد يهب دون معنى من هنا إلى هناك، والسماء صافية سوداء ليس فيها غير بعض النجوم المعلقة دائما دون سبب أو معنى مثل هبوب الهواء.

وكنت - ممسكا برسغها الساخن وهي جالسة على فراشها مطرقة - أحدثها بكلمات كالجمر، مندفعا.. ثائرا.. متهدج الصوت.

كانت قلقة تخشى الناس.. تف وبئس المصير.

وكانت فزعة تخاف الله.. سحقا وبعدا.

وكانت لا تدري بماذا تحس وتشعر، لم تكن تعرف شيئا سوى أن ترتجف كالسعفة اليابسة وأن تبكي. ولقد رجفت تلك اللحظة أيضا، ولقد بكيت كما كنت منتظرا، فوضعت رأسها ذا الشعر الأسود الناعم على كتفي، فضممتها إلى صدري بحنو ورغبة صادقتين. هل انتهى؟ هل انتهى أي شيء أيها البشر الأرانل، أيتها المخلوقات الغبية؟؟

كلا، كلا. فما دمتم على الأرض وما دامت السماء فارغة، فلن يحدث ما فيه الحياة.

صرخْتْ فجأة فذعرتُ. ثم أخذت تولول وتبكي وتضرب على صدرها؛ وأخيرا صارت تجذب شعرها كالمجنونة وتهتف بملء فمها.

– كلا، كلا، لا أريد.. لا أريد، رباه انقذني.

فصرخت فيها محتدا:

– إعملي ما تشائين ولكن لا تتصوري أن نداءك يصل قلب هذا المخلوق؛ كلا.. حتى أنه ليس بمخلوق.

ألم أكن على حق؟؟

تبا لي.

١١ أيلول ١٩٤٩

تذكرت قصة الشيخ.

كان عبدا. هذا الجيفة القذرة، لكنه كان يملك بطولة إنسانية، فما البشر إلا سلسلة طويلة من العبيد.

منْ يعلم لماذا أصبحت فاضلة تخشى الله؟؟

حتى أنا لا أعلم، أنا عبدها.

كلا، كلا، كلا، كل شيء إلا هذا، كل شيء إلا هذا.

الحرية !

آه.. ماهذه الكلمة الغريبة عن ذهني المتعب.. عن روحي المتعبة؟؟

١٥ أيلول ١٩٤٩

كيف أخطأت هكذا أيتها الدماء الحمراء المقدسة؟؟

اللذة، الجنس، الوجود، الحياة كلها، أمور لا توزن بشعرة نتنة تنتزع من تحت إبطي، أنا الإنسان الحر.. الحر بشكل مخيف.

في أعماقي، حيث تجتمع أجيال من البشر، لم أجد الحياة بل وجدت الحرية، لكنها لم تكن بغيتي.

لن تكون الحرية يوما غاية فقط، بل هي وسيلة أيضا لنعيش حياة إنسانية حقة.

وسيلة جهلها الملايين من البشر، جهلوا كيف يسخرونها، وبقيت أنا، الوحيد الذي لم يجهل، فقهقهوا واطربوا ما وسعتكم القهقهة والطرب قبل أن أفوه بكلمتي.. قبل أن أطلقها كالشمس المحرقة.

أنا من الحياة مقبل شغوف، ألبي نداء دمائي المشتعلة وأحيا بسرور إلهي حياة النحلة الطائرة والنبتة الصغيرة الخضراء، غير أن في إقبالي وشغفي، في بذرة إقبالي وفي بذرة شغفي، في المادة المكونة لإقبالي وشغفي، حرية في رفض كل شيء، في البصق في وجه الحياة، في احتقارها والانفضاض عنها بأسرع من لمح البرق، حين تمس جوهر شخصيتي

الإنسانية.. حريتي.

حريتي التي تمنحني هذا الموقف القوي الجديد، هي التي أرفض كل شيء حين تمس.

١٧ أيلول ١٩٤٩

قبيل الفجر، حين تتلاشى الانسانية ولا يعود البشر إلا أشباحا وصورا في ذهني، أجلس في فراشي دون رفيق غير نسائم رقيقة باردة وغير بعض النجوم الصافية النور، أفكر في بضع أمور سوداء هي كل ما تبقى من حياتي.

ماهي حريتي الإنسانية؟؟

أهي نزولي من السطح صباحا؟؟ أهي تناولي ما أشاء من الطعام؟؟ أهي عملي ما أريد دون حساب للآخرين؟؟ أهي الذهن المتسع؟؟ أهي الإيمان العميق بما يصل إليه الفكر؟؟ أهي الموت؟؟

آه، هذه الحرية، أهي موجودة حقا؟؟

هل أفتش عنها أكثر في أعماقي الدفينة؟؟

إني أخاف أحيانا. أخاف إن نبشت قيعان نفسي المظلمة أن أجد الله فإذا بكياني كله زيف وفراغ، وأخاف ألا أجد شيئا فلا يبقى أمامي غير الإنتحار.

١٩ أيلول ١٩٤٩

من كان يصدق؟؟

من كان يصدق؟؟

من كان يصدق أنني سأجد، آه سأجد كل شيء؟؟

كنت مجنونا هذا الصباح. أيقظتهن قبل الفجر بضجة هائلة وأنا أضحك وتكاد أطراف فمي تتشقق.

كنت ميتا رغبة فيها، وكان الأهل جميعا يتوقعون أمرا مجهولا، لكنهم لم يفهموا قط لماذا كنت أصرخ فيهم:

- لقد وجدتها. عرفتها. عرفتكم يا أعزائي، عرفت نفسي كلها.

ولم أكن في الحق واجدا إلا حريتي، حريتي التي لم تكن إلا شعوري بها.

فزعن طبعا. صارت الأم تضرب على صدرها بينما ركض البنات إلى الأسفل.

ظنني مجنونا، لكنني لم أكن سوى أله.

وبعد هذا من رأى منكم بصقة في وجه الحياة؟؟

لا أحد، معلوم هذا عندي، ولكنني سأريكم إياها.

أنا، أنا المنطلق الوحيد الذي سيضع قدمه في العالم

المخيف الموحش.. عالم الحرية والرفض المطلق، وأنا أعلم ما كنه عملي، ولهذا فقط يجب أن يقام لي نصب.

أيتها الحرية، أيها الرفض المطلق، أيتها المسميات العزيزة على فؤادي.

أخيرا.. أخيرا، ولكن ما أغلى الثمن.

٢٣ أيلول ١٩٤٩

قضي الأمر.

قضيته أنا بمفردي. بصقت على قيودي فنثرتها أشلاء.

قتلتها قبل دقائق. خنقتها بهاتين اليدين وهذه الأصابع التي أراها تدب على الورق.

لم يكن لي مفر من ذلك. أبت إلى آخر نفس كان لها في الحياة، ولقد توقعت منها أن تأبى بعد ذلك ولكن..

الضجة ترتفع الآن. لقد نادوا الشرطة ولابد أنهم سيكسرون باب غرفتي ويقبضون علي، فوا أسفا، لو رجعت حية مرة أخرى وبقيت تتذكر أنني قتلتها، لعشت سعيدا معها... سعيدا.

لم تقاوم أبدا. كان يبدو أنها تفضل موتها على أي شيء آخر.

لماذا أبكي، أيتها الدموع الأخيرة؟؟

لقد أتوا، أظنهم سيقتلونني.

حسنا.

حزيران - ١٩٤٧ آب ١٩٤٩